

المجلد الثاني

عبد المؤمن بن علي وأبناؤه وأحفاده

المبحث الأول

عبد المؤمن بن علي

أولاً: اسمه ونسبه:

عبد المؤمن بن علي بن علوي، سلطان المغرب الذي يلقب بأمير المؤمنين، الكومي، القيسي، المغربي. ولد بأعمال تلمسان. وكان أبوه يصنع الفخار⁽¹⁾.

قيل: إنه قال - أعني عبد المؤمن: إنما نحن من قيس بن غيلان بن مضر بن نزار، ولكومية علينا حق الولادة، والمنشأ فيهم، وهم أخوالي⁽²⁾.

وكان الخطباء إذا دعوا له بعد ابن تومرت، قالوا: قسيمه في النسب الكريم، وكان مولده سنة سبع وثمانين وأربعمائة⁽³⁾، وصفه الذهبي فقال: «وكان أبيض جميلاً، ذا جسم عمم⁽⁴⁾، تعلوه حمرة، أسود الشعر، معتدل القامة، جهوري الصوت، فصيحاً جزل المنطق، لا يراه أحد إلا أحبه بديهته، وكان في كبره شيخاً وقوراً، أبيض الشعر، كث اللحية، واضح بياض الأسنان، وكان عظيم الهامة، طويل القعدة، شثن الكف، أشهل العين».

أ - لقاءه بمحمد بن تومرت:

عندما رجع ابن تومرت إلى إفريقية هو ورفيقه الشيخ عمر الهنتاني صادف عبد المؤمن، فحدثه ووانسه، وقال: إلى أين تسافر؟ قال: أطلب العلم. قال: قد وجدت طلبتك. ففقهه، وصحبه، وأحبه، وأفضى إليه بأسراره لما رأى فيه من سمات النبيل⁽⁵⁾ وكان ابن تومرت يمدحه بهذه الأبيات:

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (20/366).

(2) نفس المصدر.

(3) نفس المصدر (20/367).

(4) عظم الخلق في الناس وغيرهم.

(5) انظر: سير أعلام النبلاء (20/367، 368).

تكاملت فيك أوصاف خصصت بها فكلنا بك مسرور ومغتبط
السن ضاحكة والكف مانحة والنفس واسعة والوجه منبسط⁽¹⁾

وكان ابن تومرت يقول لأصحابه: صاحبكم هذا غلاب الدول، لقد كان ابن تومرت يعمل على أن يكون عبد المؤمن صورة حقيقية له ولذلك أعده الإعداد اللازم للقيادة والزعامة والرياسة، وعلمه ودربه وأمر أتباعه بإطاعة عبد المؤمن في كل ما يقول وأن يقتدوا به في كل ما يفعله، وكان عبد المؤمن له من الاستعداد الفطري بحيث يستطيع أن يتقن كل ما يقال له من تعليم وتدريب، فعرف كيف ينهض وينظم الدولة ويسير بها خطوات ناجحة لكي تتبوأ دولة الموحدين الزعامة والسياسة في عالم المغرب والأندلس⁽²⁾.

ب - بيعته :

بايع أصحاب ابن تومرت المقرين عبد المؤمن بن علي في شهر رمضان 524هـ وقد أطلق المؤرخون على هذه البيعة الخاصة؛ لأن موت ابن تومرت ظل في طي الخفاء أكثر من سنتين ثم بايع الموحدون عبد المؤمن البيعة العامة قيل في 20 ربيع الأول سنة 526هـ، وقيل 527هـ وذلك بجامع تينملل. وقد اختار الموحدون عبد المؤمن لزعامتهم؛ لما عرفوه من اختصاص ابن تومرت له وتقريبه إليه وإطرائه لصفاته وتقديمه إياه في الصلاة، وإلى ما لمسوه من فضله وعلمه ودينه وقوة عزمته وحسن سياسته ورجاحة عقله وشجاعته⁽³⁾. وقد ذكر الذهبي خطبة ابن تومرت قبل وفاته أشار فيها إلى توليه عبد المؤمن من بعده: «استدعى ابن تومرت قبل موته الرجال المسمين بالجماعة وأهل الخمسين والثلاثة: عمر أرتاج، وعمر إينتي، وعبد الله بن سليمان، فحمد الله، ثم قال: إن الله - سبحانه، وله الحمد - من عليكم أيتها الطائفة بتأييده، وخصكم بحقيقة توحيدته، وقبض لكم من أفاكم ضلالاً لا تهتدون، وعمياً لا تبصرون قد فشت فيكم البدع، واستهوتكم الأباطيل، فهذاكم الله به ونصركم، وجمعكم بعد الفرقة، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين، وسيورثكم أرضهم وديارهم، ذلك بما كسبت أيديهم، فجددوا لله خالص نياتكم، وأروه من الشكر قولاً وفعلاً مما يزكي به

(1) انظر: النجوم الزاهرة (5/363).

(2) انظر: موسوعة المغرب العربي للغنيمي (3/203، 204).

(3) انظر: تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم (4/208).

سعيكم واحذروا الفرقة وكونوا يداً واحدة على عدوكم، فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا إلى طاعتكم، وإن لم تفعلوا شملكم الذل، واحتقرتكم العامة، وعليكم بمزج الرأفة بالغلظة، واللين بالعنف، وقد اخترنا لكم رجلاً منكم، وجعلناه أميراً بعد أن بلوناه، فرأيناه ثبتاً في دينه، متبصراً في أمره، وهو هذا - وأشار إلى عبد المؤمن - فاسمعوا له وأطيعوه ما أطاع ربه فإن بدل ففي الموحدين بركة وخير، والأمر أمر الله يقلده من يشاء. فبايع القوم عبد المؤمن، ودعا لهم ابن تومرت⁽¹⁾.

وقال ابن خلكان⁽²⁾: ما استخلفه بل أشار إليه، وما قاله الذهبي نقله عن عبد الواحد المراكشي⁽³⁾.

كما أن هناك سبباً آخر جعل زعماء الموحدين يبايعون عبد المؤمن ألا وهو أن عبد المؤمن كومي وليس من المصامدة، وهذا يجعل حداً لتطلع زعماء القبائل إلى هذه الخلافة، وبالتالي ستقضي على الخلافات التي كان وقوعها محتملاً بين قبائل المصامدة في سبيل الزعامة.

وما أن أعلنت طبقة الجماعة وفاة ابن تومرت وبيعتها لعبد المؤمن بن علي حتى قامت بقية الطبقات له بالبيعة ولم يكن له من خلافة الموحدين إلا الاسم، أما الإدارة الفعلية والإشراف الكامل، فقد كانت للطبقات المختلفة حسب اختصاص كل منها، ولذلك لم يستطع بادئ الأمر أن يستبد بأمر من الأمور ولا أن يبت في حكم من الأحكام إلا بموافقة ذوي الشأن، وكان الموحدون الأولون يدركون ذلك ويحرصون عليه، فهم لم يتركوا لعبد المؤمن العنان لأن يستبد بهم، ولا أتاحوا له الفرصة لأن ينفرد في قرارات الحكم بل نجدهم يناقشون وينتقدون أعمال عبد المؤمن ويتجرءون عليه، وقد وصل الحال ببعضهم أن قتل أخا عبد المؤمن، لما جاء لزيارة أخيه الخليفة وجلس في المكان المخصص له. فما كان منه إلا أن غضب لنفسه واعتبر ذلك إهانة له، فثار بأخي عبد المؤمن الخليفة وقتله. ولما غضب عبد المؤمن وأراد الاقتصاص من قاتل أخيه، وقف الموحدون في وجهه ومنعوه من ذلك⁽⁴⁾.

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (369/20).

(2) انظر: وفيات الأعيان (239/3).

(3) انظر: المعجب، ص 285، 287.

(4) انظر: سقوط الموحدين، ص 51، 52.

ويروي البيهقي هذا الحادث ضمن أخبار سنة ست وثلاثين وخمسمائة (536هـ) فيقول: «وفيها جاء إبراهيم إلى الخليفة أمير المؤمنين بالتوحيد وأعطاه الخليفة الخيل والعبيد والخباء. وأنزله في موضع محمد بن أبي بكر بن بيكيت. فتغابر إبراهيم أخو الخليفة مع محمد بن أبي بكر بيكيت. فقتله محمد بن أبي بكر بن بيكيت. فقام له أبو حفص وأبو الحسن يوكوت بن واكك وقالوا له: ألم يقل المهدي: بأن الجماعة وصبيانهم عبيدهم كل من في الدنيا. فصمت عند ذلك الخليفة...»⁽¹⁾.

لقد أسرها عبد المؤمن في نفسه وشرع في أخذ الخطوات التي آلت للقضاء على نظام الطبقات الذي وضعه ابن تومرت، ووضع نظاماً جديداً يكرس الولاء لشخصه وأسرته وسنرى ذلك بإذن الله، ويبدو أن عبد المؤمن لا يعتقد اعتقاداً راسخاً في عصمة ابن تومرت ومهديته وإلا فكيف يتجرأ على نسف ما وضعه ابن تومرت بعد أن مهد ذلك وجعل الزمن جزءاً من هدفه.

لقد كان الظلم في تعاليم ابن تومرت واضحاً فهذا خليفة الموحدين يقتل أخاه ويمنع الأخذ بالقصاص من القاتل بحجة أن القاتل من أهل الجماعة، وكل من في الأرض عبيد لهم، لا شك أن ذلك الحديث أثر في عبد المؤمن بن علي.

ثانياً: قتال عبد المؤمن للمرابطين وتوحيد المغرب:

في ظروف حالكة منذرة بالفتنة تولى عبد المؤمن بن علي قيادة الموحدين وكانت مهمته عسيرة وصعبة، فقد كان عليه أن يعيد الثقة إلى نفوس الموحدين وأن يعيد تنظيم صفوفهم تمهيداً للمعركة المقبلة الفاصلة، ولهذا السبب شغل طوال الشهور الأولى من خلافته في راب الصدع، وتأليف القلوب وتعبئتها لمدافعة المرابطين، فلما تم له ذلك اعترزم مواصلة القتال ضد المرابطين، فكانت أولى غزواته كخليفة على حد ما رواه ابن أبي زرع موجهة إلى مدينة مراكش فقد هاجمها أياماً ثم ارتحل عنها⁽²⁾، غير أن ابن القطان⁽³⁾ وابن خلدون يتفقان على أن أول غزواته هي غزوته لتادلة في وادي درعة، وفيها خرج عبد المؤمن من تينملل في شهر ربيع الأول سنة 526هـ في جيش ضخم قوامه ثلاثون ألف مقاتل، فسار أولاً نحو حصن تازاجورت وكانت تدافع

(1) أخبار المهدي للبيهقي، ص 93.

(2) انظر: تاريخ المغرب والأندلس، د. مهدي عبد المنعم، ص 111.

(3) المصدر السابق.

عنه حامية مرابطية بقيادة يدر بن ولكوط وقيل: يحيى بن مريم الزرجاني⁽¹⁾، فتمكن عبد المؤمن من اقتحام الحصن وقتل واليه وقتل معه نحو عشرين ألفاً من المرابطين، وهو رقم مبالغ فيه فليس من المعقول أن يضم أحد الحصون المرابطية عدداً من المدافعين يتجاوز العشرين ألف مقاتل، وهذا الرقم من الصعب تصديقه إذا أخذنا بالاعتبار كثرة عدد القلاع والحصون المرابطية في المغرب فضلاً عن انشغالهم بالجهاد ضد النصارى في الأندلس.

رحل عبد المؤمن عن تازاجورت بعد أن سبى ميمونة بنت ينتان بن عمر أرملة والي الحصن المذكور وصحبها معه إلى تينملل، حيث ظلت أسيرة لديه حتى افتديت فيما بعد بمن كان في تلمسان من أسرى الموحدين، ثم سار عبد المؤمن إلى درعة واستولى عليها، كما استولى في نفس العام - 526هـ على حصن هزرجة، فقد اقتحمه وأحرقه وقتل معظم حاميته، ومنها سار إلى بلدة جثجال وأضرم فيها النيران وقتل أهلها، ثم سار إلى بلدة أجلاحال، وكان أهلها قد قتلوا أحد أصحاب ابن تومرت وامراته في يوم العيد، فجمع عبد المؤمن أهلها وقتل منهم ما يزيد على ثلاثمائة رجل، وفي نفس العام استولى الموحدون على حصن جلاوة افتتحه الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي أحد أصحاب ابن تومرت العشرة ومعه بعض وجوه الموحدين، وكان أهل الحصن قد جرحوا ابن تومرت في إحدى غزواته، فدخله الموحدون عنوة وقتلوا كل من فيه، وفي هذا العام أيضاً افتتح الموحدون حصن تاسيغيموث أمنع حصون المرابطين، وكان قد تولى بناءه ميمون بن ياسين، كما كانت تقوم على حراسته حامية من هزرجة قوامها مائتي وخمسمائة راجل، فلما يئس الموحدون من فتحه لمناعته لجئوا إلى الحيلة فدخلوا بعض أفراده من حامية الحصن وتواطئوا معهم على فتحه، فاقتموه ليلاً، وقتلوا أبا بكر بن واصول اللمطي واليه المرابطي ومن معه من المرابطين، ونقلوا أبواب الحصن الحديدية إلى تينملل حيث ركبت على باب الفخارين⁽²⁾، ثم عاد عبد المؤمن إلى تينملل، وكانت قد وقعت خلال غيبته حادثة خطيرة، إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الطموح إلى الرئاسة كان ما يزال يضطرم في نفوس بعض منافسي عبد المؤمن وأن الرغبة في القيادة والتطلع إلى الزعامة كانت

(1) المصدر السابق.

(2) انظر: تاريخ المغرب والأندلس، ص 113، 114.

لا تزال تلح في نفوس أقرب المقربين إلى عبد المؤمن، وأعني بهم أصحاب ابن تومرت العشرة، تتلخص هذه الحادثة في إقدام عبد الله بن ملوية أحد أصحاب ابن تومرت العشرة، على شق عصا الطاعة على عبد المؤمن بن علي أثناء غيابه عن تينملل غازياً، وإعلانه الطاعة لأمير المسلمين علي بن يوسف الذي لم يتردد في إعلان رضاه عن ابن ملوية، ووضع تحت تصرفه قوة عسكرية مرابطية لمهاجمة تينملل، فسار ابن ملوية بتلك القوة إلى موضع يسمى تامد غوست قاعدة قبيلة جنفيسة بهدف استمالتها إلى جانبه ثم يزحف بقواته المجتمعة إلى تينملل، غير أن عبد الله بن وسيدرن أحد زعماء جنفيسة المقيمين في تينملل جمع شيوخ جنفيسة وأعلنوا تمسكهم بالعهد الذي قطعوه لابن تومرت، ونعوا إلى ابن ملوية تلك الخيانة وفي الحال قام أبو سعيد يخلف ابن الحسن آتيكي أحد أهل خمسين ومعه غلامه، وسارا إلى محلة ابن ملوية وقتلاه، وحملوا جثته إلى تينملل حيث صلبت، ولما عاد عبد المؤمن وعلم بما حدث شكر لجنفيسة إخلاصها وقسم الغنائم عليها⁽¹⁾.

ويبدو أن عبد الله بن ملوية لم يكن متطلعاً للزعامة وإنما أراد الرجوع إلى الحق والتوبة وخصوصاً وهو أحد العشرة الذين يعرفون الكثير من كذب وباطل وظلم وجور مارسه ابن تومرت بدون مسوغ شرعي ولذلك أعلن طاعته لأمير المسلمين علي بن يوسف.

وفي عام 526هـ حدث أمر عظيم يحمل في طياته مغزى عظيماً ومبشراً بقرب أفول عهد المرابطين، فقد انضم القائد المرابطي المشهور الفلاكي⁽²⁾ ومعه طائفة من جنده إلى الموحدين، وكان الفلاكي من أهل إشبيلية وكان في بداية أمره شقياً وقاطع طريق، ثم تاب فعفا عنه والي إشبيلية، وقدمه على الرماة والرجالة، ثم انتقل إلى خدمة أمير المسلمين علي بن يوسف، الذي قدمه على فرقة من جند المرابطين ووجهه إلى السوس لمدافعة الموحدين، فجد في محاربتهم وأظهر بطولة وشجاعة نادرتين، ثم لم تلبث العلاقات بينه وبين أمير المسلمين أن ساءت فانضم إلى الموحدين، وأخذ يهاجم الحصون المرابطية الواقعة في منطقة السوس، ويفعل بها مثلما كان يفعل في الحصون الموحدية من قبل، وظل في خدمة الموحدين إلى أن ارتد بعد ذلك عن

(1) انظر: تاريخ المغرب في الأندلس، ص 114.

(2) انظر: دولة المرابطين، ص 127.

الطاعة وعاد إلى طاعة المرابطين، وفي عام 528هـ قتل قائد المرابطين إبراهيم بن يوسف بن تاشفين واستطاع الموحدون فتح مدينة تارودنت أعظم معاقل المرابطين في بلاد السوس.

وفي عام 529هـ سار عبد المؤمن لغزو بني بيغز وظل عبد المؤمن يحاصرهم نحو أربعين يوماً، فلما يئس من إخضاعهم رفع الحصار وعاد إلى تينملل واستمر الصراع من عام 531هـ- 532هـ وفي هذا العام 532هـ تحرك عبد المؤمن من تينملل إلى جبل غياثة، فعسكر بجرائده على مقربة من المقرمة عند وادي أبي حلوا، كما انضمت إليه قوة عسكرية يتولى قيادتها عبد الله بن يحيى بن أبي بكر بن تيفلويت، فعسكرت بالقرب من محلة سير، وفي نفس الوقت حشدت زناته الموالية للمرابطين خمسة آلاف فارس يتقدمهم يحيى بن فانو غير أن زيري بن ماخوخ أحد شيوخ زناته لم يلبث أن أعلن انضمامه إلى الموحدين، وراسل عبد المؤمن بن علي وطلب منه عسكرياً لمهاجمة عسكر المغرب الذي يقوده عبد الله بن يحيى بن أبي بكر، فأمده بقوة موحدية، أغار بها على محلات عسكر المغرب، وألحق بهم خسائر فادحة. وفي نفس الوقت توفي القائد يحيى بن فانو قائد العسكر الزناتي الموالي للمرابطين، فأسند الأمير سير القيادة إلى القوة الزناتية لمحمد بن يحيى ابن القائد المتوفى، الذي واصل سيره بقوات أبيه حتى نزل على مقربة من وجدة. وكانت الأنباء قد وصلت إلى سير ابن علي بأن عبد المؤمن يريد بلاد غمارة، فوضع له سير ألفي فارس في طريقه ليمنعه من تحقيق هدفه، واستمرت هذه القوات المرابطية ما يقرب من الشهرين تتناوب حراسة الطريق ومراقبة تحركات عبد المؤمن، وفي أثناء ذلك راسل زيري بن ماخوخ ذويه من زناته واتفق معهم على أن يخذلوا المرابطين في المعركة المقبلة بين المرابطين والموحدين، فأرسل عبد المؤمن سرية من جنده مع زيري بن ماخوخ، خرجت من جبل غياثة إلى محلة زناته، وهاجمتها، ونشبت بين الفريقين معركة انهزمت فيها زناته⁽¹⁾.

وفي عام 533هـ تحرك عبد المؤمن بن علي من تينملل، ونزل في بلد ملول من منانة في أراضي حاحة، فزحف إليه الأمير تاشفين بن علي بن يوسف ولي عهد المرابطين من مراکش ومعه الروبرتير قائد فرقة الجند للمرابطين، ونزل تاشفين بقواته في تاحكوط في حاحة، وكان علي بن يوسف قد قتل عدداً من أعيان قبيلة منانة،

(1) انظر: تاريخ المغرب والأندلس، ص 117.

وكان ذلك سبباً في دخولها في طاعة الموحدين، ولكنها ارتدت عن الطاعة ثلاث مرات، فأقام عبد المؤمن في بني ملول شهراً وثلاثة أيام، وهو يشن عليهم الغارات، ثم تركهم وسار بعد ذلك إلى قبيلة بني وجدزران ثم إلى بني سوار من مناة الجبل، وكان أبو بكر بن علي بن يوسف قد قتل أشياخهم وأعيانهم لدخولهم في طاعة الموحدين ثم سار عبد المؤمن إلى أجز فرجان، فتبعه تاشفين بن علي في قواته وسد عليه الطريق، فنشبت في أجز فرجان معركة عنيفة بين الفريقين، هزم فيها تاشفين، وتكررت هزيمته ثلاث مرات إلى أن فر بنفسه إلى جهة الميزتانوت، فاستولى الموحدون على أسلابه من السلاح والثياب والدواب والعييد وفي هذه اللحظات وصلت قوى مرابطية من مراكش مدداً لتاشفين ولكنها وصلت بعد فوات الأوان أي بعد هزيمة تاشفين، فطمعوا في انتزاع الغنائم من الموحدين، فلما علم عبد المؤمن بذلك لجأ إلى الحيلة فأمر برصد الكمائن في مضائق الجبل وقدم الغنائم بين يديه اجتذاباً للقوة المرابطية التي كانت من قبيلة جزولة وأمر الكمائن بالاندفاع نحوهم إذا ما سمعوا قرع الطبول. نجحت خطة عبد المؤمن بن علي نجاحاً تجاوز كل تقدير في الحسبان، فقد هاجمت جزولة ساقه الغنيمة وقتلت بعض حراسها، فلما توسطوا مواضع الكمائن، دقت الطبول فجأة، فاندفعت الكمائن صوب جزولة فأبادوهم عن آخرهم واستولوا على أسلحتهم ودوابهم وما إن تم لعبد المؤمن ذلك حتى تراجع صوب بلاد جنفيسة.

وفي عام 534هـ، خرج الأمير تاشفين بجيش ضخم من لمتونة وزناتة لقتال الموحدين، وانضمت إليه فرقة بقيادة الروبرتير، وتمكن المرابطون من حصارهم في موقع يقال له تيزعور ما يقرب من شهرين، وشددوا عليهم الحصار، وقطعوا عنهم الميرة، حتى اضطر الموحدون إلى أكل حيواناتهم، ثم نشبت بين الفريقين معركة عنيفة رجحت في بدايتها كفة المرابطين، ولكنها انتهت بهزيمتهم وانسحاب تاشفين إلى مراكش حاملاً معه الروبرتير جريحاً.

وفي عام 535هـ (1140 - 1141م)، خرج الجيش المرابطي من مراكش بقيادة الروبرتير، فاشتبك مع الموحدين بقيادة الخليفة عبد المؤمن بن علي في مكان يسمى امسيمصي يقع في أرض كدميوه شمال تينملل وقيل: إن اللقاء حدث بجبل خدميره، ولا يذكر البيذق نشوب معركة بين الجانبين، وإنما يؤكد أن كل فريق عاد إلى بلاده، بينما يؤكد ابن عذارى حدوث قتال بين قوتي المرابطين والموحدين، وأن المعركة

انتهت بهزيمة المرابطين وعودة الروبرتير جريحاً إلى مراكش. ثم عاد الروبرتير إلى الخروج بقوات لمتونة، واشتبكت قواته مع قوات عبد المؤمن بموضع يسمى اكلظور، فهزم المرابطون، وارتد الروبرتير في فلوله جريحاً إلى مراكش، وعاد عبد المؤمن إلى تينملل⁽¹⁾.

واصل عبد المؤمن بن علي صراعه ضد المرابطين، فخرج في قواته نفس العام - 535هـ - وحاصر حصن تينلين، وكان يدافع عنه واليه المرابطي يركين بن وبدرن، واستمر يحاصر الحصن ثلاثة أيام، اضطر بعدها إلى فك الحصار والاتجاه نحو بلاد السوس، وذلك عندما علم بتحرك قوات المرابطين بقيادة الروبرتير صوب تينلين، ومع ذلك فقد تمكن عبد المؤمن من فتح بعض حصون المرابطين في السوس من بينها ايرمناد، وتاسلولت وتيونوين وايجلي وغيرهم، وفي نفس الوقت هاجم الروبرتير محلة تيغيايين الموحدية، وسبى نساءها وأخذهن معه إلى مراكش. أما عبد المؤمن فقد عاد من غزوته في أرض السوس وكان من جملة سباياها فيها (تماكونت) ابنة ينتان ابن عمر أحد وزراء علي بن يوسف، التي رجته أن يعفو عنها ويطلق سراحها، وذكرته بشفاعة أبيها ينتان بن عمر في ابن تومرت، عندما كان ماراً بمراكش، وحاول الفقهاء تحريض أمير المسلمين على التنكيل به، فلم يتردد عبد المؤمن في قبول رجائها وأمر على الفور بإطلاق سراح جميع النساء وأرسلهن إلى مراكش معززات مكرمات، فأعجب علي بن يوسف بصنيع عبد المؤمن وأمر بدوره بإطلاق سراح سبايا تيغيايين وأرسلهن آمانات مكرمات إلى تينملل. رأى عبد المؤمن بعد تلك الانتصارات التي أحرزها الموحدون على المرابطين أن ينقل مسرح الصراع إلى قلب دولة المرابطين مستهدفاً القضاء عليها وإسقاطها، وشرع في تنفيذ تلك الخطة في بداية 535هـ، ويورد البيذق وكان شاهداً عياناً لأحداث هذه الفترة وصفاً دقيقاً لحملة عبد المؤمن الكبرى ضد المرابطين فيذكر أنه خرج من تينملل في حشود ضخمة متجهاً نحو الشمال الشرقي، فنزل بموضع يسمى وانزال ثم زحف إلى أشبار وتقع جنوب شرقي مراكش ثم غادرها إلى تاساوات قدمنا بعد أن بلغه خروج تاشفين بن علي في إثره وأنه نزل بأشبار وتابع سيره نحو دمناث مروراً ببلدة يمللو القريبة منها، ثم تابع الموحدون زحفهم نحو (واويزغت) دون أن يشتبكوا مع المرابطين في معركة حاسمة باستثناء

(1) انظر: تاريخ المغرب والأندلس، ص 120.

موقعة محلية حدثت في تيزي ودارت فيها الدائرة على المرابطين . ثم تقدم الموحدون إلى (داي) فولى حاكمها المرابطي علي بن ساقطر الأدبار وأرغم أهلها على بذل الطاعة للموحدي وواصل الموحدون زحفهم صوب (تازاكارث) ولم تلبث هذه البلدة أن سقطت في أيديهم وتبعتها قلعة واوما، ثم آزرو التي تقاعس حاكمها في الدفاع عنها، فدخلها الموحدون، واتخذها عبد المؤمن قاعدة لقيادته، وجه منها عدداً من الحملات لإخضاع المناطق المجاورة، وفي نفس الوقت أرسل بعض أشياخ الموحدين إلى تينملل يبشرون أهلها بانتصارات عبد المؤمن . وهكذا دخل أهل فازاز جميعاً في طاعة الموحدين وأقام عبد المؤمن فترة في آزرو حيث تزوج من إحدى نساها، واصل عبد المؤمن زحفه، فخرج من آزرو حيث اعترضته قوة مرابطية على طريق مكناسة، ففتك بها وأباد معظمها، واستولى على كميات كبيرة من المؤن والعتاد، ثم هاجم قواعد المرابطين في غريس الواقعة جنوبي آزرو، وتمكن من بسط نفوذه على جميع المناطق الواقعة جنوبي آزرو، وعندئذ اتجه نحو سجلماسة، فبادر واليها أبو بكر بن صارة بالدخول في طاعة الموحدين . وفي أوائل عام 536هـ قامت سرية موحدية على رأسها عبد الرحمن بن زكو بمهاجمة مدينة صفروي واقتحمتها، وتابع ابن زكو زحفه إلى الشمال الشرقي نحو الفلاج الواقعة شمال شرقي صفروي . وفي هذه الأثناء غادر تاشفين بن علي مدينة فاس إلى جبل العرض فعسكر به، ثم بعث الروبرتير في قوة إلى الفلاج لاستنقاذها، فخرج إليه الموحدون بقيادة يحيى آغوال، فنشبت بينهما معركة عنيفة هزم فيها الموحدون وقتل قائدهم يحيى، واحتز رأسه وأرسل إلى فاس ثم تقدم الموحدون نحو أرض غياثة الواقعة شرقي فاس، وضربوا محلثهم على سفح جبل عفرا، بينما عسكر المرابطون في موضع يسمى النواظر يقع على مقربة من جبل عفرا . ولم يمض وقت قصير حتى حل فصل الشتاء وكان شتاءً قاسياً تعرضت به المنطقة خلال أسابيع لعواصف عاتية وسيول مدمرة اكتسحت السهول والقرى والوديان وقاسى بسببها العسكران أيما عناء وشدة، إلا أن وقعها على المرابطين كان أشد وأنكى، حيث تساقطت الخيام، وعامت أوتادها لرخاوة الأرض، وغرقت الدور وهلك عدد كبير من عسكر المرابطين بسبب البرد القارس وقلّة الأقوات والوقود في كل من المعسكرين، وبلغ سعر الشعير في معسكر الموحدين وفقاً لقول البيذق ثلاثة دنانير للرطل، وبلغ الحطب عند تاشفين ديناراً للرطل . ومع حلول فصل الربيع استأنف الموحدون زحفهم فكان أول موضع قصده عبد المؤمن هو قلعة الولجة من حصون المنطقة المعروفة

باسم لكاي وتقع إلى الشمال الشرقي من فاس . وفي نفس الوقت تقدم تاشفين بن علي ومعه الروبرتير في أثر الموحدين ، فاضطر الموحدون إلى ترك أرض لكاي إلى أرض بني غمارة من بطون صنهاجة ، وكانوا قد أظهروا ولاءهم للموحدين ودخلوا في طاعتهم . وعندئذ سار تاشفين والروبرتير إلى أرض بني تاودا ونزلوا بها ، وأصبح العسكران كفرسي رهان ، كلما تقدم الموحدون سار وراءهم المرابطون ، ثم خرج الروبرتير واشتبك مع الموحدين في معركة عنيفة في موضع يقال له (تازغدر) أسفرت عن قتل عدد من القوتين ، ارتد الروبرتير على إثرها إلى بني تاودا بينما سار الموحدون إلى (تاغزوت) ومنها إلى بني مزكلدة ، ثم إلى إيلانة ثم إلى أيجن . وفي أيجن مرض الشيخ أبو حفص عمر بن علي أزناج أحد جماعة العشرة ، فلما شعر بدنو أجله وعظ أشياخ الموحدين ونصحهم بالتزام الصبر والتمسك والإخلاص لمبادئ ابن تومرت ، وضاعة عبد المؤمن ، ثم توفي في مساء نفس اليوم ودفن في موضع يسمى (بجدار نمضي) ثم واصل الموحدون سيرهم في الريف ، مروراً بتا مقريت ووادي لو أرض بني سعيد . ومن ورائهم الروبرتير يتعقبهم إلى أن وصل إلى مدينة تطوان ، في الوقت الذي وصلت قوات الموحدين إلى قلعة باديس المطللة على البحر المتوسط ، ومكنت نفوذها في تلك النواحي ، وواصلت من هنالك تقدمها إلى ثغر المزمة ومنها إلى جبل تسمامان ، حيث وجه عبد المؤمن قائده عبد الرحمن بن زكو في قوة من الموحدين لغزو مليلة ، فاقترحه وظفر بغنائم وفيرة ثم رحل الموحدون إلى ندرومه من بلاد كومية ، قبيلة عبد المؤمن ومنها واصلوا تقدمهم شرقاً إلى تاجرا مسقط رأس عبد المؤمن وفي هذه البلدة وجه عبد المؤمن ثلاث حملات : الأولى بقيادة عبد الرحمن بن زكو ، وجهتها ثغر وهران ، تمكنت من اقتحامه والاستيلاء عليه ، والثانية بقيادة الشيخ أبي إبراهيم إسماعيل ، وكانت وجهتها قبائل بني وانوان ، والثالثة بقيادة يوسف بن واندوين وسارت إلى جبل مديونة من أحواز تلمسان ، فخرج إليها المرابطون من تلمسان بقيادة أبي بكر بن الجوهري ، ومحمد بن يحيى بن فانو ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة في وادي الزينون ، انهزم فيها المرابطون وقتل القائدان ابن الجوهري وابن فانو ، وهكذا واصل الموحدون سلسلة انتصاراتهم على قوى المرابطين وإن كانت كلفتهم كثيراً طوال حياة أمير المسلمين علي ابن يوسف لمحبة الناس له وعظم هيئته في نفوس المرابطين ، ثم جاءت وفاته سنة 537هـ بداية لنهاية دولة المرابطين⁽¹⁾ ، وتولى الحكم بعده تاشفين الذي كان متفرغاً في حياة

(1) انظر: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، ص 121-124 .

والده لقتال الموحدين، لذلك خف الضغط على الموحدين لانشغال تاشفين عنهم بعض الوقت بشئون الحكم الداخلية وبالمحافظة على هيبة المرابطين في الأندلس، ومما زاد الأمر سوءاً أن النورمان أدركوا حرج الدولة المرابطية في ذلك الوقت، وداهموا سبتة بأسطول يتألف من نحو مائة وخمسين سفينة حربية في عام (538هـ) فتصدى لهم الأسطول المرابطي بقيادة علي بن ميمون وأنزل بهم هزيمة نكراء.

وفي هذا الوقت أيضاً حدث خلاف بين لمتونة ومسوفة من قبائل المرابطين فانضمت مسوفة إلى الموحدين. وفي عام 539هـ/1144م تمكن عبد المؤمن بن علي من قتل القائد المرابطي الروبرتير ودخل تلمسان وفي 27 رمضان من نفس العام قتل تاشفين ودخل الموحدون وهران، وفي 14 ذي القعدة 540هـ/ دخل الموحدون فاس، وفي 18 شوال تمكنوا من دخول مراکش⁽¹⁾.

وهكذا نجح الموحدون في إسقاط دولة المرابطين بعد سلسلة طويلة من الصراع المرير استخدم فيه الطرفان مختلف الخطط ضد بعضهما البعض.

ولكن خطط الموحدين كانت أحكم من خطط المرابطين، فقد اعتمد الموحدون أسلوب الحرب الطويلة مستخدمين أسلوب حرب العصابات فقضوا على اقتصاديات دولة المرابطين. كما شجع هذا الوضع الإسبان النصارى على تشديد الضغط على المرابطين لتحويل المعركة لصالحهم، وقد صور صاحب الحلل الموشية⁽²⁾ ذلك بقوله: «وتأججت نار الفتنة بالمغرب، وبسبب هذه الفتنة اتصلت الحرب، وغلت الأسعار وتوالت الفتن، وعم الجذب وقلت المجابي وكثر على أهل الإسلام المحن بالعدوتين ووجه كثير من حماة الأندلس إلى العدو ونقل إليها كثير من أسلحتها وعددها فكان ذلك أعظم فساد حل بالأندلس، واختل عليهم وألح النصارى بالضرب على جهات بلاد الأندلس حين علموا عجز الإمارة بالمغرب عن الدفاع لما فيه من الفتن حتى تغلبوا على كثير من بلادها، وكان الإسلام بها عزيزاً والكفر مقهوراً والجزية مرتفعة منذ ملكها يوسف بن تاشفين إلى زمان خروج المهدي فساءت الأحوال وكثرت الشدائد والأهوال»⁽³⁾.

(1) انظر: المغرب الكبير (2/ 783-786).

(2) مؤلفه مجهول.

(3) الحلل الموشية، ص 12.

وبعد دخول الموحدين مراکش أصبح عبد المؤمن سيد المغرب الأقصى كله، فكان لا بد من توطيد أركان دولته الجديدة في الأندلس والمغرب الأدنى والأوسط.

ثالثاً: اهتمام الموحدين بالأندلس:

بعد أن احتل عبد المؤمن بن علي مدينة فاس وحاصر مراکش تلقى من أهل سبتة بيعتهم له، فولى عليهم يوسف بن مخلوف الهنتاتي، ولكن أهل سبتة انتقضوا على يوسف بن مخلوف وقتلوه هو ومن معه من الموحدين، وجاز القاضي عياض واليهم السابق إلى يحيى بن علي بن غانية المسوفي والي الأندلس، فلقية بالجزيرة الخضراء وطلب منه والياً على سبتة، فأرسل معه يحيى بن أبي بكر المعروف بالصحراوي، فقام بأمر سبتة وشكل حلفاً مع القبائل الخارجة عن الموحدين من أمثال برغواطة ودكالة، فاضطر عبد المؤمن إلى قتال هؤلاء الخارجين عليه، فاستطاع أن ينكل فيهم بالقتل والأسر والسبي حتى انقادوا لطاعته، ثم عاد إلى مراکش وتقدم الصحراوي بطلب العفو عنه، فعفا عبد المؤمن عنه، وراجع أهل سبتة طاعتهم، وكذلك أهل سلا الذين كانوا خرجوا عليه⁽¹⁾.

وبعد هذه المعارك الطاحنة في المغرب الأقصى بهدف استتباب الأمر لعبد المؤمن وجه نظره إلى الأندلس وكانت كثير من مدنها قد استغلت الصراع بين المرابطين والموحدين، فأعلنت ثوراتها وانفصالتها عن المرابطين وزادت عنفاً هذه الثورات بعد وفاة تاشفين بن علي في عام 539هـ، وكان علي بن عيسى بن ميمون من بين هؤلاء الثوار، فاستقل بقادس ودخل في طاعة الموحدين، وخطب أول خطبة لهم في قادس سنة 540هـ، كذلك قام أحمد بن قيس الصوفي الثائر في مرتلة، فلما استولى أبو محمد سدراي على مرتلة أجاز ابن قيس إلى عبد المؤمن بمراكش عام 541هـ ورغبه في احتلال الأندلس وضمها إلى دولة الموحدين، فسير عبد المؤمن معه جيشاً بقيادة براز بن محمد المسوفي، في شعبان 541هـ، ثم أمده بجيش آخر بقيادة موسى بن سعيد وجيش آخر بقيادة عمر بن صالح الصنهاجي. فلما عبروا الزقاق ونزلوا بالأندلس، هاجموا أبا القمر بن عزوز بشرش ورندة، فدخل في طاعة الموحدين، ثم قصدوا لبله وأخضعوا يوسف بن أحمد البطروجي، ثم مضوا إلى مرتلة، فدخلوها وافتتحوا بعد ذلك شلب، وقصدوا باجة وبطليوس، فدخل أبو محمد سدراي ابن وزير في

(1) انظر: المغرب الكبير (2/788).

طاعتهم، كما انضوت إشبيلية في سنة 541هـ تحت لوائهم بعد أن اقتحموها براً وبحراً، ثم دخلوا مالقة في هذه السنة. غير أن يوسف البطروجي لم يلبث أن نكث بطاعته للموحدين، وحول الدعوة عنهم، كما ارتد عن طاعتهم ابن قيس في شلب، وعلي بن عيسى بن ميمون في قادس، ومحمد بن علي بن الحجام في بطليوس، بينما بقي أبو القمر بن عزوز على طاعتهم في شريش ورندة.

اضطرت أحداث الأندلس عبد المؤمن إلى إرسال جيش إليها يقوده يوسف بن سليمان، فنزل يوسف بإشبيلية التي اتخذها الموحدون حاضرة لهم في الأندلس، وتمكن يوسف من بسط نفوذ الموحدين على بطليوس وشتتمرية وقادس وشلب ولبله، ثم دخلت قرطبة وجيان في طاعة الموحدين سنة 543هـ، ولم تبدأ سنة 545هـ حتى كان رؤساء الأندلس الذين كانوا قد أعلنوا ثورتهم على المرابطين، واستقلوا بمدنهم، قد بايعوا عبد المؤمن بن علي وأعلنوا الدخول في طاعته وبذلك فرض الموحدون طاعتهم على قادس وإشبيلية، وقرطبة، ومالقة، والجزيرة، ولبله، وشلب، وشريش، ومرتلة، فحاولوا استرجاع المريّة في عام 546هـ وحاصروها، إلا أنهم فشلوا في اقتحامها وتخليصها من العدو بسبب حصانة أسوارها وإن كانوا قد نجحوا في اقتحام المرسى وحرق السفن والأجفان الراسية به، ووصلوا إلى المسجد الجامع.

وفي سنة 549هـ تغلب الموحدون على غرناطة بعد أن خرج عنها ميمون بن بدر اللمتوني، وتوطد نفوذهم في جنوب الأندلس. ثم تلقى السيد أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن، والي الجزيرة ومالقة وغرناطة أمر أبيه بمحاصرة المريّة براً وبحراً وتخليصها من النصارى، فتقدم أبو سعيد إلى المريّة للجهاد بصحبة أخيه أبي حفص، ونصب الموحدون المجانيق على القصبّة بعد أن احتلوا المدينة وحاصروها حصاراً محكماً. وحاول ألفونسو السابع الملقب بالسليطين أن ينقذ النصارى من هذا الحصار فأقبل إلى نصرتهم على رأس جيش من 12 ألف مقاتل، وانضم إليه حليفه ابن مردنيش في قوة من 6 آلاف مقاتل، اضطّر السيد أبو سعيد عثمان إلى استمداد الخليفة، فوجه إليه القائد الكاتب أبا جعفر بن عطية ومعه الأمير أبو يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن، والي إشبيلية فازدادت قوة الموحدين بقدمه واضطر ابن مردنيش أمام وخز الضمير ولوم النفس الشديد للرجوع من حيث أتى، إذ رأى (العار على نفسه في قتالهم مع كونهم يقاتلون النصارى فارتحل). وولى عسكر ألفونسو الأديبار تاركين حامية قصبّة المريّة لمصيها التعس، ومات ألفونسو في طريقه إلى بياسة سنة 522هـ وخلا الجو

للموحدين، فشددوا الحصار على القسبة، واستولوا عليها في سنة 552هـ وهكذا استرد الموحدون المرية، وقد تهدمت أبنيتها، وتغيرت محاسنها⁽¹⁾.

وفي سنة 555هـ أمر عبد المؤمن ولده أبا سعيد عثمان ببناء جبل الفتح وتحصينه، فتم بناؤه على يدي الحاج يعيش المهندس، وعلى إثر ذلك جاز عبد المؤمن من طنجة إلى الأندلس، فنزل بجبل الفتح وأقام شهرين أشرف خلالهما على أحوال الأندلس، ووفد إليه قوادها وأشياخها لتحتيته ثم أمر بغزو غرب الأندلس، فسير الشيخ أبا محمد عبد الله بن أبي حفص من قرطبة، ففتح حصن أطرافكمش من أحواز بطليوس، واستولى الموحدون على بطليوس وباجة وبابرة وحصن القصر، ثم عاد عبد المؤمن بعد ذلك إلى مراكش⁽²⁾.

رابعاً فتح المغربين الأدنى والأوسط:

تمت سيطرة الموحدين على الأندلس عام 556هـ وكانت أخبار المغرب الأوسط والأدنى تصل إلى خليفة الموحدين عبد المؤمن من اختلاف الأمراء، وتناول العرب من بني سليم وهلال على إفريقية بالعبث والفساد، كما بلغه استيلاء النورماندين على سواحل إفريقية، فزحف في سنة 546هـ من مراكش قاصداً مملكة يحيى بن عبد العزيز ابن المنصور بن الناصر بن علناس الحمادي ببجاية، فدخل مدينة الجزائر على حين غفلة، فخرج إليه الأمير الحسن بن علي بن يحيى تميم، وكان قد انتقل إليها بعد سقوط المهدي في أيدي النورمان، فقدمه أهلها على أنفسهم، فلما علم بقدم عبد المؤمن بن علي خرج للقاءه فتلقيه بحفاوة بالغة وصحبه في غزو إفريقية ثم سار عبد المؤمن نحو بجاية، فأخرج يحيى بن العزيز أخاه سبع للقاء جيوش عبد المؤمن، فانهزم هزيمة نكراء، ودخل الموحدون بداية ولما رأى يحيى أن لا طاقة له بمحاربة عبد المؤمن، هرب في البحر إلى صقلية لقصد الانتقال منها إلى بغداد، وحمل معه ما استطاع من الذخائر والجواهر والذهب والأموال، ثم عدل عن ذلك ونزل في بونة على أخيه الحارث، ثم رحل عنه إلى قسنطينة، فنزل على أخيه الحسن. أما عبد المؤمن فقد قصد بجيوشه قلعة بني حماد معقل الصنهاجيين الأعظم، وحرزهم الأمنع، واقتحمها عنوة، فخربها، وأضرم النار في مساكنها، وقتل جوش بن العزيز

(1) انظر: المغرب الكبير (2/ 791).

(2) انظر: المغرب الكبير (2/ 792).

ولما استولى عبد المؤمن على الجزائر وعلى بجاية والقلعة وأعمالها، استعمل عليها ابنه عبد الله، ورتب من الموحدين من يقوم بالدفاع عنها وكر عائداً إلى مراكش. وكان يحيى بن العزيز قد نزل عن قسنطينة لعبد المؤمن على أن يؤمنه، فأمنه وأصبحه معه إلى مراكش في سنة 547هـ وأسكنه بها، ثم انتقل يحيى إلى سيلا سنة 558هـ فسكن قصر بن عشيرة إلى أن توفي في هذه السنة. أما الحسن بن علي فقد صحب عبد المؤمن في غزواته الأولى إلى أفريقية، كما صحبه في سنة 544هـ في غزوته الثانية، فحاصر معه المهدية، ثم دخلها وسكن بها ثمان سنوات إلى أن استدعاه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، فرحل بأهله إلى مراكش، وتوفي بتامستا في سنة 563هـ. ثار عرب الأثيخ ورياح وزغبة في سطيف على عبد الله بن عبد المؤمن بن علي من أجل إعادة دولة بني حماد، فأرسل عبد المؤمن بن علي إلى ابنه مدداً، والتقى عبد الله بن عبد المؤمن بهم في سطيف، فانهزم العرب، وأعلنوا استسلامهم للموحدين، وقدم إليه وفد من كبرائهم طائعين، فأكرمهم، ووصلهم وأعادهم إلى إفريقية معززين. وكان لذلك أكبر الأثر في دخول العرب في طاعته، فاتخذ منهم جنداً وأقطع رؤساءهم بعض تلك البلاد ثم إنه استنفرهم إلى الغزو بالأندلس، فاستجاب له منهم جمع عظيم. فلما أراد الجواز إلى الأندلس في سنة 555هـ أدخلهم بها، وجعل بعضهم في نواحي قرطبة، وبعضهم في إقليم إشبيلية، مما يلي شريش وأعمالها، وقد استكثر منهم أبو يعقوب يوسف وأبو يوسف يعقوب المنصور، ويذكر المراكشي أن بالجزيرة في أيامه من عرب زغبة ورياح وجشم وغيرهم نحو 5 آلاف فارس سوى الرجال⁽¹⁾.

وفي هذه الأثناء كان عبد الله بن عبد المؤمن قد خرج في جيش كبير من المصامدة والعرب ونزل على مدينة تونس سنة 552هـ، فحاصرها، وأخذ في قطع أشجارها وتغوير مياهها، وكان قد استقل بها عبد الله بن خراسان، فخرج أهل تونس لمقاتلة الموحدين، وانضم إليهم محرز بن زياد أمير بني علي من بطون رياح هو وقومه من العرب فهزموا الموحدين⁽²⁾.

وتوفي عبد الله بن خراسان أثناء ذلك، فخلفه علي بن أحمد بن عبد العزيز بن خراسان، وعاد عبد الله بفلول أصحابه إلى بجاية فكتب إلى أبيه بذلك. فخرج أبوه من

(1) المراكشي، ص 226.

(2) انظر: المغرب الكبير (2/795).

مراكش في جيوش لا تحصي في 10 شوال سنة 553هـ بعد أن استخلف على مراكش أبا حفص بن يحيى، وترك معه ولده السيد أبا الحسن. ثم زحف إلى مدينة تونس ففتحها عنوة، ثم واصل زحفه إلى المهديّة، وضرب عليها الحصار. وكانت الإمدادات تأتي حاميتها من صقلية، ولذلك طال الحصار إلى سبعة أشهر، ثم افتتحها عبد المؤمن بعد أن أمن حاميتها على أن يخرجوا منها إلى صقلية، ودخلها في سنة 544هـ. وكان عبد المؤمن أثناء حصاره للمهديّة قد بعث ابنه عبد الله لمحاصرة قابس، فاستولى عليها من بني كامل من رياح، المتغلبين عليها، كما استولى على قفصة من بني الورد، وعلى طبرقة من مدالع بني علال، وجبل زغوان من بني حماد بن خليفة، وشقنبارية من بني عماد بن نصر الله الكلاعي، والأرس من بني فثانة العرب، ويذكر انمراكشي أنه افتتح طرابلس الغرب أيضاً، وافتتح بلاد الجريد كلها⁽¹⁾. وعاد بعد ذلك إلى مراكش بعد أن أتم إخضاع إفريقية كلها وضمها إلى دولته، وأصبحت دولة انموحدين تمتد من طرابلس شرقاً إلى السوس الأقصى غرباً، لأول مرة في تاريخ المغرب منذ عصر الولاة⁽²⁾.

خامساً: سياسته مع النصارى واليهود وتخريجه للسياسة لضبط نظام الدولة:

أ - عندما استولى عبد المؤمن على مراكش، قتل المقاتلة، وكف عن الرعية، وأحضر اليهود والنصارى، وقال: إن المهدي أمرني أن لا أقر الناس إلا على ملة الإسلام، وأنا مخيركم بين ثلاث، إما أن تسلموا، وإما أن تلحقوا بدار الحرب، وإما القتل. فأسلمت طائفة ولحقت أخرى بدار الحرب، وخرب كنائسهم، وعملها مساجد، وألقى الجزية، فعل ذلك في جميع مدائنه، وأنفق بيوت الأموال، وصلى فيها اقتداء بعلي وليري الناس أنه لا يكنز المال، وأقام كثيراً من معالم الإسلام مع سياسة كاملة، ونادى: من ترك الصلاة ثلاثاً فاقتلوه، وأزال المنكر، وكان يؤم بالناس، ويتلو في اليوم سبعاً، ويلبس الصوف الفاخر، ويصوم الإثنين والخميس، ويقسم الفياء بالشرع فأحبوه، وكان يأخذ الحق إذا وجب على ولده، ولم يدع مشركاً في بلاده لا يهودياً ولا نصرانياً، فجميع رعيته مسلمون⁽³⁾.

(1) المراكشي، ص 230.

(2) انظر: المغرب الكبير (2/799).

(3) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (20/370، 371).

ورأى عبد المؤمن أنه من الحزم والفتنة أن يضع للدولة نظاماً موطدة الدعائم، فأطلق حرية العلوم والمعارف، وسار في كل ذلك مع نهج الدين الحنيف، وبنى عدداً من المساجد والمدارس الفخمة التي غدت مراكز للعلوم والآداب، وقرنها بالخدمة العسكرية دوماً، مع التمرين على فنون الحرب، ذلك أن عبد المؤمن كان يخشى أن يؤدي الانقطاع إلى العلم والدرس إلى إضعاف الهمم، وفتور الحماسة الحربية لدى الموحدين.

كما أنشأ عبد المؤمن مدرسة لتخريج رجال السياسة، وموظفي الحكومة، وقادة الجيش، وكان يجمعهم يوم الجمعة بعد الصلاة في قصره، ويمتحنهم فيما درسوا، ويوجه إليهم الأسئلة بنفسه تشجيعاً لهم على الاجتهاد، ولكي يجعل منهم رجالاً أكفاء قادرين على نفع البلاد في السلم والحرب.

وفي أيام أخرى كان يمتحن تدرياتهم العسكرية، فيختبرهم في الطعن بالحرب والرمي بالقوس والسهام والمبارزة وركوب الخيل، وفي السباحة والمعارك البحرية في بحيرة أعدها ووضع فيها سفناً كبيرة وصغيرة ليتدرب الشباب على قتال البحر، وقيادة السفن، والوثب على سفن العدو، ويقدم للمهرة الممتازين الهدايا الثمينة بنفسه⁽¹⁾.

لقد استطاع عبد المؤمن في نحو عشرين سنة أن ينشئ نظاماً جديداً للدولة، إذ لم يبق من قدماء الموظفين المعارضين من يعمل على مناوآته. وكان أشد ما يعنى به عبد المؤمن - وهو من أعظم قادة عصره - تنظيم شئون الحرب والجهاد التي بث فيها بجهوده ومتابعته، نهضة إحياء شاملة، وإليك وصف نظام سير الموحدين، وتقسيمات الجيش، كما كان عندما استولى على تونس والمهدية من النورمان الصقليين⁽²⁾.

كان مسير الجيش بعد صلاة الصبح قبيل شروق الشمس، وكانت علامة المسير ثلاثة قرعات من طبل ضخم دوره خمسة عشر ذراعاً، مدهون بلون الموحدين الأخضر، ومحلى بالذهب، وقد صنع من خشب رنان، فكان يسمع على مسيرة نصف يوم إذا ضرب في مكان مرتفع في يوم ساكن لا ريح فيه، وكانت كل قبيلة تتبع علمها الخاص، وهو يحمل مطوياً أثناء السير، ولا ينشر عندئذ سوى علم الطلائع، وقد كان مكوناً من اللونين الأبيض والأزرق، وعليه هلال مذهب، وتحمل الخيام والعتاد

(1) انظر: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، يوسف أشباخ (50/2).

(2) انظر: الآراك، د. شوقي أبو خليل، ص 29.

والمؤمن على ظهور الجمال والدواب، هذا غير ما يتبع الجيش من قطعان عديدة من الثيران والأغنام تسير تحت إشراف الرعاة، وتخصص لغذاء الجند، وكان جيش عبد المؤمن النظامي يتألف - فضلاً عن الفرسان - من سبعين ألفاً من المشاة، وكان ينقسم إلى أربعة جيوش، يفصل بعضها عن بعض أثناء السير مسيرة يوم، وذلك حتى لا يقع نقص في الماء، أو ضيق في المكان، وإذا كان معظم الجند مثقلاً بالسلاح فقد كانت مسيرة اليوم قصيرة المدى، وكان يقطع خلالها عادة عدة أميال فقط، وكان يقتصر على السير منذ شروق الشمس إلى وقت الظهر، حتى يتسنى للجند أن يبدؤوا السير في اليوم التالي بقوى مجددة، وترتب على هذا التمهّل في مسير الجيش أن اقتفى عبد المؤمن ستة أشهر ليقطع المسافة بين سلا وتونس، وهي مسافة كانت تقطعها فرقة الفرسان الخفيفة في نحو شهرين فقط. وكان عبد المؤمن إذا ركب احتاط به الأشياخ والقادة، وأدوا معه الصلاة، ثم ينصرف بعد ذلك كل إلى مكانه، وإلى قيادة الجند التابعين له، وكان يتقدمه مائة شيخ وقائد، يمتطون جياداً مطهّمة ويتقلدون أسلحة فاخرة، ويرتدون ثياباً فخمة، وكان يحمل أمامه مصحف الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي غنمه الموحدون من قرطبة، تبركاً وتيمناً، وقد وضع في صندوق بديع الصنع، محلى بصفائح الذهب، مرصع بأروع اللآلئ والأحجار الكريمة، حتى إنه قيل بحق بأن كنوز الأمويين، وبني عباد ملوك إشبيلية، وبني هود ملوك سرقسطة، والمرابطين، قد اجتمعت فيها جميعاً وتكدست. وهذا الصندوق يحمل في هودج ثمين، وعلى جوانبه الأربعة أربعة أعلام، ويتبعه مباشرة أمير المؤمنين عبد المؤمن، وإلى جانبه ولده وكتاب سره السيد أبو حفص والي تلمسان، وهو شقيق السيد أبي يعقوب يوسف، ويتبعه على قيد مسافة قصيرة الأمراء وأبناؤه الآخرون⁽¹⁾ الذين يرافقون الجيش، ثم يتبعهم بنود القبائل وفق ترتيبها، وعدد من قارعي الطبول على خيول عالية، والنافخون في الأبواق والقرون⁽²⁾ وغيرهم من رجال الموسيقى العسكرية، ثم الولاة والقضاة والوزراء والكتاب، وبعد ذلك يأتي الجند متعاقبين في نظام محكم، فإذا حل الوقت الذي ينتظم فيه المعسكر، أفرد لكل قسم مكانه المعين ولا يسمح لإنسان أن يترك المعسكر دون إذن القائد المختص، ثم توزع الأقوات التي يحمل الجيش منها مقادير وافرة على الجند بأنصبة متساوية، فلا يقتر على أحد منهم.

(1) كان لعبد المؤمن ثلاثة عشر ولداً.

(2) القرن هنا: آلة موسيقية تعتمد على النفخ، تشبه تماماً القرن المعروف على رأس البقر أو غيره.

يستنتج من هذه النظم الصارمة، ومن المثابرة على التمارين الحربية، ومن دراسة حياة الموحدين:

- 1 - أن عبد المؤمن كان يعتني عناية خاصة باختيار مواقع القتال.
- 2 - كان يتولى القيادة بنفسه في كل الأمور الحاسمة الهامة.
- 3 - وكان يتبع نظاماً جديداً في منتهى البساطة، ولكنه جم الفوائد.
- 4 - وأن قيمة الجيش ليست في عدده، إنما هي قبل كل شيء في مقدرته وكفاءته ومعنوياته وإيمانه، وكان عبد المؤمن يرى أن القوة الرئيسية يجب أن تؤلف من جند من المشاة حسنة التدريب، حسنة التسليح، فهي العامل الحاسم في مصير المواقع وفي اقتحام المدن، مع وجود جيش ضخيم من الفرسان لا يستغنى عنه في المعارك.

ومن أعمال عبد المؤمن: مسح جميع أراضي مملكته، وحصل من الولاة على بيانات دقيقة عن سكان كل ولاية، وعن خواصها وثروتها وغلاتها. وكان يرمي من ذلك إلى تقرير الضرائب من ناحية، وأن تتخذ هذه البيانات أساساً لتقرير عدد الجند وأنواعه من ناحية أخرى، فسكان الثغور في المغرب والأندلس يقدمون البحارة والسفن، والمناطق الصحراوية والغنية بالخييل تقدم الفرسان ودواب الحمل والجمال، وعلى الولايات الأخرى في المدن الداخلية مثلاً - تقديم الجند المشاة والسلاح، كل بنسبة سكانها.

وكان عبد المؤمن يحتفظ بالسلاح بكميات وافرة، وبمقادير جيدة في المخازن المعدة له. وأنشأ مصانع السلاح في كثير من قواعد مملكته تعطي القسي والنشاب والخوذات والدروع والسهام. . وآلات الرمي والمنجنيقات التي تستخدم في الحصار⁽¹⁾ وعزم عبد المؤمن على تغيير نظام الطبقات؛ ولذلك قام بحركة واسعة للقضاء على كل العناصر غير الموالية له، وتخلص من كل العناصر التي لم يكن ولاؤها له غير مؤكد، ومشاغبتها عليه محتمل وقوعها. وخافه الموحدون خوفاً عظيماً، وأرعبت النفوس منه وساعدته الظروف على تحقيق أهدافه الشخصية وطموحه الذاتي، فمن هذه الظروف أن طبقة الجماعة قد تناقص عددها تناقصاً كبيراً. فقد قتل

(1) انظر: معركة الأراك، ص 32.

خمسة أفراد من أعضاء هذه الطبقة في موقعة البحيرة سنة 524هـ التي هزم فيها الموحدون من قبل القوات المرابطية. وهؤلاء هم: أبو محمد عبد الله بن محسن الونشريسي وسليمان بن مخلوف الحضرمي، وأبو عمران موسى بن تماري الكدميوي وأبو يحيى بن بيكيت وأبو عبد الله بن سليمان. أما أبو حفص عمر بن علي أصناك، فقد توفي سنة 536هـ، وقتل عبد الله يعلي بن ملوية سنة 527هـ بعد أن خرج على الخليفة عبد المؤمن. إذ إنه حقد على الموحدين بيعتهم له، أما أبو الحسن بن واكاك، فقد قتله طلحة غلام أبي إسحاق أمير المسلمين المرابطي سنة 541هـ.

وإذن فقد توفي في طبقة الجماعة، المكونة من عشرة أشخاص، ثمانية أفراد، ولم يعد باقياً على قيد الحياة منهم إلا أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي وعبد المؤمن ابن علي، وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لطبقة الجماعة، فإنه من المؤكد أن الكثيرين من أعضاء طبقتي أهل خمسين وأهل سبعين، وغيرهما من الطبقات قد تناقص بسبب الحروب المستمرة التي خاضها الموحدون. ولذلك أتاحت وفاة الكثيرين من أعضاء طبقات الموحدين، فرصة طيبة لعبد المؤمن بن علي لأن يجري تعديلاً في نظام الطبقات⁽¹⁾. وبعد أن تخلص من أكثر من (32080) شرع لتنفيذ المخطط الهادف لتغيير نظام الطبقات، فأصدر أوامره لجميع الموحدين من المصامدة وغيرهم بالحضور إلى حضرته في مراكش فحضرُوا والرعب يملأ جوانحهم والخوف يملأ قلوبهم، خوفاً ورهبة مما يخبئه له الخليفة. لقد رسم عبد المؤمن خطته في أناة وروية، ونفذها على خطوات وعلى مهل وفي غير استعجال، حتى إذا ما استوفى ربط الحلقات وإحكامها، جاءت نتيجة خطته محققة لما وضعها من أجله، وهي أن يكون له في الدولة كل شيء ولا يكون للموحدين أي شيء، هكذا أصبح عبد المؤمن خليفة الموحدين اسماً وفعلاً.

ولما أصبحت الحال تلك، وأحضر الموحدين إلى حاضرة مراكش، أعلن فيهم تغيير نظامهم الطبقي، وأعلن عليهم النظام الجديد، وحدد فيه مكان كل منهم وتغيرت الطبقات من أربع عشرة طبقة إلى ثلاث طبقات: (فالطبقة الأولى: هم السابقون الأولون الذين بايعوا ابن تومرت، وصحبوه وغزوا معه وصلوا خلفه، والذين شاهدوا البحيرة وباءوا بفضلها واشتملوا بردة شرفها وارتقوا إلى ذروة الحظوة بها، وشهد لهم

(1) انظر: سقوط دولة الموحدين، ص 58.

بالفضل الذي لا يوازي والرتبة التي لا تعادل. ويتلو هذه الطبقة: من آمن بهذا الأمر ودخل في هذا الحزب وانضوى إلى هذا الشعب من بعد البحيرة إلى فتح وهران. والطبقة الثالثة من فتح وهران إلى هلم جراً. من النظر إلى التنظيم الجديد لطبقات الموحدين، يتبين أن عبد المؤمن ألغى طبقة الجماعة إلغاء نهائياً، وهي الطبقة التي كان لها الحق الأول في إدارة شئون الموحدين ومراقبة الخليفة. هذا بالإضافة إلى أنه ألغى طبقتي أهل خمسين وأهل سبعين وهما الطبقتان التاليتان لطبقة الجماعة في النفوذ والسيطرة. وهكذا أزاح عبد المؤمن من أمامه الطبقات ذات الشأن في نظام ابن تومرت. بل إن عبد المؤمن ألغى الأربع عشرة طبقة، وجمعها كلها في طبقة واحدة، وهي الطبقة الأولى في نظامه. وهو قد ذهب إلى مدى أبعد، إذ جعل في هذه الطبقات كل من رأى ابن تومرت وبايعه وصلى خلفه واشترك معه في حروبه. ليس هذا فقط، بل وكل من اشترك في غزوة البحيرة التي هزم فيها الموحدون عند أحواز مراكش من قبل المرابطين، يوم الثاني عشر من جمادى الثانية من سنة خمسمائة وأربعة وعشرين هجرية الموافق الثالث عشر من مايو سنة 1130م.

ومعنى هذا أن عبد المؤمن حطم نفوذ الطبقات المتنفذة الأولى في نظام ابن تومرت ثم إنه ساوى بين أعضاء الطبقات الأخرى والطبقات الثلاثة الأولى، وجعل مكانة الجميع على قدم المساواة. وهذه المساواة بين أفراد الطبقات أتاحت لأفراد الطبقات الإحدى عشر الأخيرة في النظام الملغي، كسباً معنوياً كبيراً وفائدة مادية جلية. وبهذا استطاع أن يكسب ود وإخلاص وتأييد أفراد هؤلاء الجماعة لإتاحته لهم هذه الفرصة الذهبية. كما وأن التنظيم الجديد أتاح للكثيرين ممن كانوا خارج الطبقات الموحدية، فرصة الانتماء للنظام الموحي واكتسابهم شرف الانضواء تحت رايته.

أما الطبقة الثانية، فهي تشمل كل الذين دخلوا في حركة الموحدين، منذ موقعة البحيرة سنة 524هـ وحتى فتح وهران سنة 538هـ وهذا يعني أن النظام الجديد أتاح الفرصة للجماعات والقبائل المختلفة التي دخلت في طاعة الموحدين بعد سنة 524هـ وحتى سنة 538هـ. سواء كانت هذه الطاعة قد جاءت طواعية واختياراً أو إجباراً وقسراً بحد السيف. وهكذا استطاع عبد المؤمن بحركة بارعة أن يستل الضغينة من نفوس الذين فرضت عليهم طاعة الوحدين بعد عام البحيرة وحتى فتح وهران. وذلك بمساواتهم بغيرهم من الموحدين الأولين، وإدراجهم في الطبقة الثانية من النظام الجديد. وهذا بطبيعة الحال أدى إلى انتشار الرضى بينهم واطمئنانهم إلى مستقبلهم

الذي يبشر به انصواؤهم في النظام الطبقي للموحدين، وهي إلى جانب الكسب المعنوي والسياسي، قد أتاحت لهم فرصة الاستفادة المادية إلى أبعد مدى.

وهذه الطبقة سوف تنظر بعين الرضى والتأييد للخليفة عبد المؤمن بن علي، الذي أقدم بشجاعة فائقة على تغيير النظام القديم، وأتاح لأفرادها شرف الانتماء إلى النظام الموحدى، بل وفي الطبقة الثانية منه، وبهذا استطاع عبد المؤمن أن يجعل أفراد هذه الطبقة من المخلصين له والمؤيدين لسياسته والدافعين لأعدائه.

والطبقة الثالثة، تضم من دخل حركة الموحدى منذ فتح وهران سنة 538هـ وإلى أي زمن تلا ذلك، فاتحاً الباب لكل من يطيع الموحدى لأن ينتظم في سلك الطبقة الثالثة.

ثم إن عبد المؤمن لما أن افتتح المغرب الأوسط وأدخله في دولة الموحدى، بعد أن قضى على إمارة بني حماد فيه، قام بمحاربة قبائل بني هلال، الذين وقفوا في وجهه، وتمكن الموحدون من هزيمتهم في أكثر من موقعة وأرغموهم على الخضوع والطاعة، وبدلاً من أن يقوم عبد المؤمن بالانتقام من هذه القبائل وزعمائها، نجده ينقل معه ألفاً من كل قبيلة منهم، وينزلهم بالمغرب الأقصى كما قام في نفس الوقت برد الأموال والحرم التي غنمت من تلك القبائل ومنحهم جزيل العطاء. وعن هذه الأحداث يذكر البيهقي قائلاً: «وأما ما كان من أمر غنائم العرب وسبيها، فترك منها أمير المؤمنين في فاس ومكناسة وفي سلا وحمل مع نفسه سلاطينهم إلى مراکش وعيالهم وهم: ديفل بن ميمون وحباس بن الرومية وابن الزحامس وابن زيان، وأبو قطران، وأبو عرفة، والقائد ابن معرف. فهؤلاء الملوك رد لهم الخليفة عيالهم وأعطاهم المال وصرفهم إلى بلادهم. فقالوا للخليفة: تأمرنا بالرجوع إليك؟ فقال لهم الخليفة مجابواً لهم: نحن نصل إليكم، وردهم كافة بنسائهم حملها لهم القبائل وكان ذلك في عام 547هـ»⁽¹⁾.

هذا بالإضافة إلى أن الخليفة بعد غزوته للمغرب الأدنى، أحضر معه الكثير من قبائل العرب وأنزلهم بالمغرب الأقصى. وهو في الواقع قام بهذا العمل، ليبعد شر هذه القبائل عن إفريقية والمغرب الأوسط ويجعلها في متناول يده، كما أنه كان يرمي إلى كسب ودها واستخلاص ولائها. كما وأن جلبيه لتلك الآلاف منهم وإنزالهم

(1) البيهقي، أخبار المهدي، ص 116.

بالقرب منه، يخفي وراءه سياسته في أن يتقوى بهم ويجعلهم كعصبية له ضد ثورة المصامدة المحتملة⁽¹⁾.

وحرص على ملاطفة العرب واستمالتهم وحرصهم على قتال النصارى ودخول الأندلس معه فقال:

أقيموا إلى العلياء هوج الرواحلِ وقودوا إلى الهيحاء جُزد الصواهلِ
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر وشدوا على الأعداء شدة صائلِ
فما العزُّ إلا ظهرُ أجردَ سابحٍ وأبيض مأثور وليس بسائلِ
بني العم من عليا هلال بن عامر وما جمعت من باسل وابن باسلِ
تعالوا فقد شدت إلى الغزو نيةً عواقبها منصورة بالأوائلِ
هي الغروة الغراء والموعد الذي تنجز من بعد المدى المتطاوِلِ
بها نفتح الدنيا بها نبلغ المنى بها ننصف التحقيق من كل باطلِ
فلا تتوانوا فالبدار غنيمة وللمدلج الساري صفاء المناهلِ⁽²⁾

وكانت الشعراء تقصد عبد المؤمن لمدحه، ولما قال فيه التفاسي قصيدته:

ما هز عطفه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي
أشار إليه أن يقتصر على هذا المطلع، وأمر له بألف دينار⁽³⁾، ولما سار عبد
المؤمن بجيوشه ونزل جبل طارق، وسماه جبل الفتح، فأقام أشهراً، وبنى هناك
قصوراً ومدينة، ووفد إليه كبراء الأندلس، وقام بعض الشعراء منشداً:

مال للعدى جنة أوقى من الهرب أين المعز وخيل الله في الطلب
وأين يذهب من في رأس شاهقة وقد رمته سهام الله بالشهب
حدث عن الروم في أقطار أندلس والبحر قد ملأ البرين بالعرب

فأعجب بها عبد المؤمن وقال: بمثل هذا يمدح الخلفاء⁽⁴⁾، وبعد أن اطمأن عبد
المؤمن إلى سلامة الخطوات التي اتخذها في سبيل أن تكون له السيادة الكاملة في

(1) انظر: سقوط دولة الموحدين، ص 57 - 60.

(2) انظر سير أعلام النبلاء (20 / 373).

(3) المصدر السابق.

(4) المصدر السابق.

الدولة، وضمن تحطيم نفوذ الشخصيات البارزة في مجموعة الموحدين، وتأكيد له ولاء أغلب الطبقات في النظام الجديد، وبعد أن ضمن حماية نفسه وأسرته بمجموع بني هلال وسليم التي أنزلها في أحواز مراكش، أقدم على الخطوة الخطيرة التي ما فتىء يستعد لها ويمهد الطريق أمامها ألا وهي جعل الحكم في دولة الموحدين في عقبه، وتولية أحد أبنائه ولياً لعهد⁽¹⁾.

وفي عام 549هـ أعلن عبد المؤمن للملأ من طبقات الموحدين والقبائل الداخلة في طاعتهم، من بني هلال وصنهاجة، توليته لابنه محمد ولياً لعهد، وقامت تلك الجماعات في الحال بالموافقة على ذلك الأمر، وبايعت لولي العهد. وقد بين الخليفة في رسالة بعث بها إلى طلبة الموحدين في سبتة وطنجة، الظروف التي تمت فيها تولية ابنه لخلافته والعوامل التي فرضت عليه ذلك، فجاء فيها: «ولكم أن كثيراً من أولياء هذه الدعوة العلية وإخوانها من أشياخ الأنظار وأعيانها، تقدمت رغبتهم في أمر آخرته الخيرة لميقاتها، وأرجأته التؤدة إلى خير أوقاتها... وكانت العشائر العربية الهلالية والقبائل الشرقية والصنهاجية ومن معها، حاضرة وبادية من أهل إقليمها وذوي ألبابها وحلومها، يشيرون إلى ذلك على انشراحهم ويعلمون أنه غاية اقتراحهم ومادة نفوسهم وأرواحهم، ولم تزل مخاطبتهم في ذلك تتردد حيناً بعد حين ورغبتهم تتأكد لما كان عندهم فيه من ثلج ويقين. فلما اتفق بحمد الله وصولهم في هذه الوفادة، للأخذ بأطناب السعادة المنيفة بهم على مقتضى الآمال والإرادة، صرحوا لأول لقاءهم بما أضمروه، وأبدوا سرهم المكنون وأظهروه. واعلموا أن محمداً - وفقه الله - هو الذي ارتضوه لحمل عبئهم وتخيره، ورغبوا في تقديمه على بلادهم وإنفاذه معهم على قصده في توليته مرادهم... فرأينا بعد استخارة الله تعالى أن نجتمع في هذا الموضع المبارك من وصله من شيوخ الموحدين وطلبتهم وعمالهم وتذاكر معهم في ذلك الأمر المسئول ونعارضهم فيه على الجملة والتفصيل، ونلقي إليهم حديث القوم المذكورين، بآتم وجوه الإلقاء والتوصيل فكان ذلك على ما أقصد وذكرنا في الأمر على ما أتوخى فيه وأعتمد. وعرفوا بأن ذلك ليس مما بنى عليه ولا مما أعتقد... وتقدمهم الشيخ الأجل أخونا أبو حفص عمر بن يحيى - أعزه الله بتقواه - هذا أمر نحن أولى بتقديمه وأعلم بوجوبه ولزومه وأولى بتأميره علينا وتحكيمه، ونحن

(1) انظر: سقوط الموحدين، ص 60.

النقطة الرابعة: يبدو أن أبا حفص عمر بن يحيى وجد نفسه أمام أمر واقع؛ ولذلك بادر بإظهار الرضى عن هذه البيعة، وكان أول المبايعين لابن عبد المؤمن وتنازل أمام ضغط الواقع عن حقه الطبيعي لعبد المؤمن في الحكم.

وهكذا استطاع عبد المؤمن أن يجعل الحكم وراثياً في عقبه، وبذلك يكون انحرف عن تعاليم ابن تومرت في قضائه على الطبقات وجعل الحكم وراثياً.

وبهذا الفعل ثارت حفيظة الكثيرين من الموحدين مما دفع بعضهم بالثورة عليه ومن الطبيعي أن يكون أهل ابن تومرت أول المعارضين لعبد المؤمن، ولذلك قامت خيانات في الجيش الموحد بقيادة يصلتين بن المعز الذي انفصل بجيشه في معارك الموحدين مع العرب في المغرب الأوسط؛ مما سبب في انتصار بني هلال على جيش ابن وانديون والقضاء على أغلبه، وقتل قائد الجيش الموحد في المعركة. وطمع بنو هلال إثر هذا الانتصار في الموحدين، الذين اهتزت روحهم المعنوية لهذه الهزيمة. ولكن عبد المؤمن بقدرته العسكرية الفذة استطاع أن يهزم تلك القبائل، وأن يحافظ على وحدة الجيش الموحد وارتفاع روحه المعنوية، وظهر للموحدين بمظهر الرجل الفذ القادر على الوقوف في وجه العواصف الهوج، ففوت بعمله ذاك الفرصة على يصلتين الذي كان يرمي إلى القضاء على جيش عبد المؤمن بفعله ذاك، وألقي القبض على يصلتين وقتل في سبته عام 546هـ بتهمة الخيانة العظمى.

وفي عام 549هـ حاول أخوا ابن تومرت، عيسى وعبد العزيز في مدينة مراکش القيام بثورة على عبد المؤمن والاستيلاء على مقاليد الحكم، إلا أن المخلصين من أنصار عبد المؤمن وأهل مراکش قضوا على تلك المحاولة الفاشلة، وكان عبد المؤمن بعيداً عن مراکش في سلا، وقبض على المتآمرين وكان تعدادهم ثلاثمائة شخص، وقتلوا جميعاً، وأعدم أخوا ابن تومرت. وفي عام 555هـ حاول بيت ابن تومرت اغتيال عبد المؤمن إلا أن تلك المؤامرات أحبطت في مهدها، وشعر عبد المؤمن بضرورة جلب قبيلته لحمايته من المؤامرات المتكررة، فأنفذ الأموال إلى زعماء قبيلته، وأمرهم أن يأتوه ركباناً ويركبوا معهم كل من تجاوز سن الحلم من أبناء القبيلة.

وقد وصل رجال قبيلة كومية سنة 557هـ إلى مراکش في تعداد تجاوز الأربعين ألفاً وفرح بهم عبد المؤمن فرحاً عظيماً وأنزلهم في مراکش وأعطاهم الدور ووزع عليهم البساتين، وجعل منهم حرسه الخاص الذي يقف بين يديه في جلوسه ويحيط به في تسياره، وبذلك اطمأن على نفسه على حكم أبنائه من بعده.

إن الخطوات التي اتخذها عبد المؤمن من إبعاد قبائل المصامدة وشراء خدمات قبائل بني هلال، وإسناد أمر الحماية إلى قبيلته كومية، والقضاء على تنظيم ابن تومرت في الطبقات جعل من الموحدين خدماً لمصلحة فرد وأطماعه المادية بعد أن كانوا يخدمون فكرة ويدافعون عن مبدأ، ففقدت نفوسهم تلك الروح المتوثبة والحماس الشديد في سبيل تقدم الدولة ونجاح الدعوة.

إن مسلك عبد المؤمن في جعل الحكم وراثياً ساهم في إيجاد تنافس شديد وتنازع مميت بين أبناء عبد المؤمن فيما بعد، بل سفكت دماء، وحيكت مؤامرات دنيئة بين الأخوة في سبيل تولي الحكم، وكان من نتيجة ذلك كله ضعف الدولة، وتدهورها السريع في فترة ليست بالطويلة⁽¹⁾. لم يكتف عبد المؤمن ببيعة الموحدين لابنه، بل قام بتعيين أبنائه على أغلب ولايات الدولة، وجعل إلى جانبهم وزراء من الطلبة ليكونوا مرشدين وناصحين لهم. ومن الأمور المهمة والأحداث ذات الدلالة في تاريخ دولة الموحدين، ظهور التكتلات التي ساهمت في إضعاف الدولة، وكانت سبباً في وقوع وزيرين في نكبتين عظيمتين على يد عبد المؤمن وهما: الوزير أبو جعفر أحمد ابن عطية، وعبد السلام الكومي⁽²⁾.

شيء من سيرة عبد المؤمن ووفاته:

1 - لما نزل عبد المؤمن سلا وهي على البحر المحيط ينصب إليها نهر عظيم ويمر في البحر عبر النهر، وضربت له خيمة، وجعلت جيوشه تعبر قبيلة قبيلة، فخر ساجداً، ثم رفع وقد بلّ الدمع لحيته، فقال: أعرف ثلاثة وردوا هذه المدينة لا شيء لهم إلا رغيف واحد، فراموا عبور هذا النهر، فبذلوا الرغيف لصاحب القارب على أن يُعدّ بهم، فقال: لا آخذه إلا عن اثنين، فقال أحدهما وكان شاباً: تأخذ ثيابي وأنا أسبح، ففعل، فكان الشاب كلما أعيأ، دنا من القارب، ووضع يده عليه يستريح، فيضربه بالمجذاف، فما عدى إلا بعد جهد، فما شك السامعون أنه هو السابح، والآخرا بن تومرت، وعبد الواحد الشرقي⁽³⁾.

2 - ذكر ابن العماد في شذرات الذهب عبد المؤمن بن علي فقال: «كان ملكاً

(1) انظر: سقوط الموحدين ص (62 - 68).

(2) انظر: سقوط دولة الموحدين، ص 69.

(3) انظر: سير أعلام النبلاء (373/20).

عادلاً سياسياً عظيم الهيئة عالي الهمة كثير المحاسن متين الديانة قليل المثل، وكان يقرأ كل يوم سبعاً من القرآن العظيم، ويجتنب لبس الحرير ويصوم الإثنين والخميس ويهتم بالجهاد والنظر في الملك كأنما خلق له، وكان سفاكاً لدماء من خالفه، سأل أصحابه مسألة ألقاها عليهم فقالوا: لا علم لنا إلا ما علمتنا فلم ينكر ذلك عليهم؛ فكتب بعض الزهاد هذين البيتين ووضعهما تحت سجادته وهما:

يا ذا الذي قهر الأنام بسيفه ماذا يضرك أن تكون إلها
الفظ بها فيما لفظت فإنه لم يبق شيء أن تقول سواها
فلما رآها وجم وعظم أمرهما وعلم أن ذلك بكونه لم ينكر على أصحابه
قولهم: لا علم لنا إلا ما علمتنا، فكان عبد المؤمن يتزيا بزى العامة ليقف على
الحقائق فوقعت عيناه على شيخ عليه سيما الخير ففرس فيه أنه قائل البيتين فقال له:
اصدقني أنت قائل البيتين؟ قال: أنا هو، قال: لم فعلت ذلك؟ قال: قصدت إصلاح
دينك فدفع إليه ألف دينار فلم يقبلها. ومن شعره وقد كثر الثوار عليه:

لا تحفلن بما قالوا وما فعلوا إن كنت تسمو إلى العليا من الرتب
وجرد السيف فيما أنت طالبه فما ترد صدور الخيل بالكتب⁽¹⁾

3 - بعد أن أتم عبد المؤمن افتتاح المغرب الأوسط وإسقاط إمارة بني حماد فيه، وافتتاح المغرب الأدنى وإجلاء النورمانديين منه إلى صقلية، وضمها إلى دولة الموحدين، وأصبحت دولة خلافته تمتد من حدود برقة شرقاً حتى البحر المحيط غرباً، ويشمل سلطانه معظم بلاد الأندلس الإسلامية، وبعد أن تم تعيين ابنه ولياً لعهد، وعقد لأبنائه على أغلب ولايات الدولة وقضى على أغلب المتآمرين ورءوس الفتنة، وخضد شوكة أفراد بيت ابن تومرت، وعمل على تقوية جانبه باصطناع أعراب بني هلال وتقوية ظهره بعصبية قبيلته، شرع في الإعداد للمشروع العسكري الكبير الذي نوى القيام به، ألا وهو دخول الأندلس بجيش لم يسبق له مثيل للقضاء على الممالك والإمارات الإسبانية وكل من تمرد على دولة الموحدين، ولذلك استعد عبد المؤمن لهذه الحملة⁽²⁾.

(1) انظر: شذرات الذهب (40 / 183).

(2) انظر: سقوط دولة الموحدين، ص 77.

يقول ابن صاحب الصلاة: «تم إعداد مائتي قطعة بحرية جديدة في دور الصناعة بمرسى المعمورة عند حلق البحر على ضفاف وادي سبو، وغيره من الدور في بلاد المغرب وسواحل الأندلس، وهذه القطع تعتبر إضافة لقطع الأسطول الموحدية الزاخر. وكانت الاستعدادات في نفس الوقت تجري لتدريب الرجال على أفانين القتال البحري والتهيئة له. كما أنه: «أعد من القمح والشعير للعلوفات والمواساة للعساكر على وادي سبو بالمعمورة المذكورة، ما عينته مكدياً كأمثال الجبال بما لم يتقدم الملك قبله. . . ونظر في استجلاب الخيل له من جميع طاعاته بالعدوة وأفريقية، وانتخاب الأسلحة من السيوف المحلاة والرماح الطوال على أجمل الهيئات والدروع والبيضات والترسة، إلى غير ذلك من الثياب والكسا والعمائم والبرانس، ما استغريته الأذهان ولا تقدم بمثله زمان. وقسم ذلك كله على الموحدين. . .»⁽¹⁾.

خرج عبد المؤمن بن علي من مراكش في جموع الموحدية ومختلف القبائل يوم الخميس خامس عشر من ربيع الأول من عام ثمانية وخمسين وخمسمائة هجرية (558هـ) وانتهى به السير في رباط الفتح من مدينة سلا. ونزلت الجيوش في الفحوص الواقعة ما بين عين غبولة وأرض بندغل وكان تعداد الجيش حوالي مائة ألف راجل ومائة ألف فارس. وتقرر في مجلس الحرب الذي عقده الخليفة، تقسيم الجيش أربعة أقسام، وتوجيهها إلى أربع جهات مختلفة من بلاد إسبانيا:

- 1 - الجيش الأول: يتجه إلى مدينة قلمرية عاصمة البرتغال.
- 2 - الجيش الثاني: إلى فرناند ودي ليون.
- 3 - الجيش الثالث: إلى ألفونسو الثامن ملك قشتالة.
- 4 - الجيش الرابع: يسير إلى برشلونة.

غير أن الذي غير هذا المخطط وجمد هذا العمل، مرض عبد المؤمن بن علي المفاجيء، وانتظار الموحدية شفاءه، إلا أن المرض أصاب قوته وأظهر ضعفه حتى أسلمه إلى منيته مساء يوم الخميس العاشر من جمادى الآخرة من سنة 558هـ⁽²⁾، قال ابن كثير في عام ثمان وخمسين وخمسمائة: «فيها مات صاحب المغرب عبد المؤمن

(1) ابن صاحب الصلاة، ص 213، 215.

(2) انظر: سقوط دولة الموحدية، ص 78.

ابن علي، وخلفه من بعده في الملك ابنه يوسف وحمل أباه إلى مراکش على صفة أنه مريض، فلما وصلها أظهر موته فعزاه الناس وبيعوه على الملك من بعد أبيه، ولقبوه أمير المؤمنين، وقد كان عبد المؤمن هذا حازماً شجاعاً، جواداً معظماً للشريعة، وكان من لا يحافظ على الصلوات في زمانه يقتل، وكان إذا أذن المؤذن وقبل الأذان يزدحم الخلق في المساجد، وكان حسن الصلاة ذا طمأنينة فيها، كثير الخشوع، ولكن كان سفاكاً للدماء، حتى على الذنب الصغير، فأمره إلى الله يحكم فيه بما يشاء...»⁽¹⁾.

إن المتتبع لتاريخ عبد المؤمن بن علي يلاحظ بوضوح أن حماسه لدعوة ابن تومرت تبدد حيث انشغل بالأمر السياسي والعسكرية، واكتفى بالقيام بزيارة قبر ابن تومرت بين الفينة والأخرى، كرمز على محبته له ولدعوته، أما العمل على تأصيلها في نفوس الناس ونشرها في أماكن جديدة فلم يذكر المؤرخون - على حسب اطلاعي - أنه قام بشيء من هذا، ويدل على ذلك أن عبد المؤمن لما بسط سلطانه على بلاد المغرب والأندلس لم تنتشر دعوة ابن تومرت في تلك الديار، ولم تتأصل محبتها في قلوب سكانها كما تأصلت عند سكان بلاد المغرب الأقصى الذين انتشرت بينهم تلك الدعوة في عصر ابن تومرت، ولم يسر ظل الدعوة الموحدية جنباً إلى جنب مع الظل السياسي للدولة في عهد عبد المؤمن وإن كان استمر على نفس البرنامج التعليمي الذي وضعه ابن تومرت، وأصدر أوامره إلى كافة الموحدين بشأن ضرورة المحافظة على تعاليم ابن تومرت والعمل على نشرها، وكان ذلك تكتيكاً من عبد المؤمن لكي يحافظ على مكانته بين الموحدين المخلصين لدعوة ابن تومرت. إن تاريخ عبد المؤمن يشير إلى أنه لم يكن جاداً في الالتزام الحرفي لدعوة ابن تومرت، ولعل ما تحمله دعوة ابن تومرت من شطط وغلو في بعض أفكارها من الأسباب الرئيسية التي جعلته يحجم عن العمل على نشرها حتى لا يحدث رد فعل مضاد له مما يعرض دولته للخطر⁽²⁾.



(1) البداية والنهاية (12/264).

(2) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية العدد السادس، ص 572، 573.

المبحث الثاني

أبو يعقوب يوسف

هو السلطان الكبير، أبو يعقوب يوسف ابن السلطان عبد المؤمن بن علي، صاحب المغرب.

قيل بأنه تملك بعد أخيه المخلوع محمد لطيشه، وشربه الخمر، فخلع بعد شهر ونصف، وبويع أبو يعقوب، وكان شاباً مليحاً، أبيض بحمرة، مستدير الوجه، أفوه، أعين، تام القامة حلو الكلام فصيحاً، حلو المفاهمة، عارفاً باللغة والأخبار والفقهاء، متفتناً، عالي الهمة، سخياً، جواداً، مهيباً، شجاعاً خليقاً للملك⁽¹⁾.

أولاً: علمه وبيئته:

أ - علمه:

قال عبد الواحد بن علي التميمي: صح عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين، أظنه البخاري. قال: وكان سديد الملوكية، بعيد الهمة، جواداً، استغنى الناس في أيامه. ثم إنه نظر في الطب والفلسفة، وجمع كتب الفلاسفة، وتطلبها من الأقطار، وكان يصحبه أبو بكر محمد بن طفيل الفيلسوف، فكان لا يصبر عنه، وسمعت أبا بكر ابن يحيى الفقيه، سمعت الحكم أبا الوليد بن رشد الحفيد يقول: لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب، وجدته هو وابن طفيل فقط، فأخذ ابن طفيل يطربني، فكان أول ما فاتحني أن قال: ما رأيهم في السماء؟ أقديمة أم حادثة، فنخت، وتعللت، وأنكرت الفلسفة، ففهم، فالتفت إلى ابن طفيل، وذكر قول أرسطو فيها، وأورد حجج أهل الإسلام فرأيت منه غزارة حفظ، لم أكن أظنها في عالم، ولم يزل يبسطني حتى تكلمت، ثم أمر لي بخلعة ومال ومركوب⁽²⁾.

وقال عنه العلامة شوقي أبو خليل: «أعرف الناس كيف تكلمت العرب،

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (99/21).

(2) انظر: سير أعلام النبلاء (100/21).

وأحفظهم لأيامها وآثارها وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام، وأحسن الناس ألفاظاً للقرآن الكريم، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو، وأحفظهم للغة العربية وكان بعيد الهمة، سخياً جواداً، استغنى الناس في أيامه وكثرت في أيديهم الأموال، هذا مع إثارة للعلم شديد وتعطش إليه مفرط، صح أنه كان يحفظ أحد الصحيحين وأغلب الظن أنه البخاري، حفظه في حياة أبيه بعد تعلم القرآن الكريم، هذا مع ذكر جميل من الفقه، وكان له مشاركة في علم الأدب واتساع في حفظ اللغة وتبحر في علم النحو حسبما تقدم. وطمع به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة والطب... وجمع مكتبة، كان ما فيه قريباً مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي ثاني الخلفاء بالأندلس (350 - 366هـ) حيث احتوت مكتبته على أربعمئة ألف مجلد.

ب - بيعته:

يرى الأستاذ الدكتور مراجع عقيله الغنائي أن بيعة يوسف بن عبد المؤمن تمت بمؤامرة دبرت بزعامة الأخوين عمر ويوسف ابني عبد المؤمن والحزب الموالي لهما وأن أبا حفص عمر بن عبد المؤمن حرص على أن يسيطر منذ توليه الوزارة لأبيه على الأمور في الدولة وأن ينظم كتلة من الموحديين ترتبط مصالحها به، ولذلك أصبح عليه من السهل تدبير أمر خلع أخيه غير الشقيق، محمد، ووضع أخيه الشقيق يوسف على الحكم بدلاً منه. ولربما كان عمل الأمير عمر، بجعل الإمارة لأخيه يوسف بدلاً منه وهو الشخصية ذات القوة والنفوذ إنما كان يبعد نفسه عن شبهة التآمر، والذي يرجح الفرض القائل بوقوع المؤامرة في خلع محمد ورفع أخيه يوسف، أن بعضاً من أبناء عبد المؤمن رفضوا في أول الأمر المبايعة لأخيهم يوسف فقد رفض السيد أبو سعيد عثمان والي غرناطة، والسيد أبو محمد عبد الله والي بجاية، أن يبايعا لأخيهما بالإمارة.

ولذلك لم يستطع يوسف بن عبد المؤمن أن يسمى باسم أمير المؤمنين وإنما اكتفى باسم الأمير. كما وأن رائحة المؤامرة قد تسربت إلى جموع الموحديين والجيوش الكثيفة التي كانت نازلة بمدينة سلا⁽¹⁾، لذلك ألغى مشروع العبور إلى الأندلس، وأعطيت الجنود الأمر بالرجوع إلى مواطنها، كما أخذ شيوخ الموحديين يعملون على إزالة الشكوك من نفوس الموحديين⁽²⁾، فابن صاحب الصلاة يقول:

(1) انظر: سقوط دولة الموحديين، ص 85.

(2) انظر: المصدر السابق نفسه.

«ووعظ الشيخ المرحوم الموحدين أجمع على طبقاتهم ومراتبهم وذكرهم بما يجب عليهم في دينهم وصلاح يقينهم وعرفهم بما أوجب الله عليهم من مفروضهم ومسئولهم وبحق البيعة ولم يعلم أحداً بالوفاة واشتد عليهم في لزوم الصلاة والضرب بالسياط أهل الفسق والجناة، وشغلهم بأنفسهم من الحديث بالخزعبلات. وألزم الحفاظ من الموحدين وغيرهم عند المساء وعند الفراغ من صلاة الصبح، بقراءة الحزب واشتد عليهم في ملازمة ذلك بأعظم الاشتداد، ثم نفذ الأمر من الأمير بانصراف العساكر المجتمعة إلى قبائلهم ومواضعهم وتأخر العرض إلى وقت يأذن الله به من إزماعهم واجتماعهم..»⁽¹⁾.

وسعى شيوخ الموحدين في سبيل الإصلاح بين الأخوة والتوفيق بينهم وصفا الجو بين أبناء عبد المؤمن بعد جهد جهيد، وتمت البيعة العامة ليوسف بن عبد المؤمن في منتصف جمادى الآخرة من سنة ثلاثة وستين وخمسائة (563هـ) ومنذ هذا التاريخ تسمى يوسف باسم أمير المؤمنين، وهو الاسم الخلفي عند الموحدين⁽²⁾.

ثانياً: سياسة يوسف بن عبد المؤمن في الأندلس:

كانت سياسة الموحدين بالأندلس في عهد يوسف بن عبد المؤمن تدور على ثلاثة محاور:

- 1 - المحور الأول: استكمال السيادة الموحدية على الأندلس، ولذلك استهدفوا كل الإمارات الخارجة عن سيادتهم من أجل إدخالها تحت نفوذهم.
 - 2 - المحور الثاني: العمل على الحد من أطماع الممالك والإمارات الإسبانية.
 - 3 - المحور الثالث: المساهمة في ازدهار الحضارة الإسلامية في الأندلس.
- إلا أن الثورات العنيفة التي تعرضت لها دولة الموحدين أثختها وكانت حركة التمرد التي قادها محمد بن مردنيش في الأندلس من أعنفها.
- ينتسب محمد بن مردنيش إلى الأصول العربية وكان والده سعد بن محمد والياً للمرابطين على أفراغة⁽³⁾.

(1) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 231 - 233.

(2) انظر: سقوط الموحدين، ص 88.

(3) انظر: سقوط الموحدين، ص 89.

تولى محمد بن سعد بن مردنيش حكم بلنسية بعد وفاة صهره ابن عياض، يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة (542هـ) الموافق 21 أغسطس سنة (1147م). ثم قام علي بن عبيد والي مرسه بالتنازل لابن مردنيش عن حكمها في جمادى الأولى سنة (542هـ). وبذلك أصبح حكم ابن مردنيش يشمل شرق الأندلس، ومن بلنسية شمالاً حتى قرطاجة جنوباً.

واستطاع ابن مردنيش أن يحافظ على وحدة إمارته وتماسكها ودخل في أحلاف وعهود ومواثيق مع ممالك النصراري وإمارتها ضد الموحدين، وكان غرض الإسبان النصراري في الوقوف مع ابن مردنيش وشد أزره، أنهم وجدوا فيه خصماً عنيداً للموحدين، كما أنهم رأوا فيه قوة أندلسية مسلمة تستطيع أن تحارب المسلمين بنفس القوة والأسلوب، كما أنه كان من الدوافع الرئيسية لمعاوضة أمراء وملوك النصراري لابن مردنيش، هو أن لا يتيحوا الفرصة للموحدين بالسيطرة على كل الأندلس الإسلامية، وثانياً إبقاء المسلمين في حالة فرقة وتفكك.

إلا أن توسع الموحدين في بلاد الأندلس وشدة شوكتهم جعلت الكثير من المماليك والإمارات الإسبانية النصرانية توقع معاهدات هدنة وحسن جوار معهم أو تحالفهم وبهذا فقد ابن مردنيش الكثير من حلفائه الإسبان السابقين الذين كان وجوده يعتمد عليهم في المقام الأول. ولما أن أخذ سلطان الموحدين يتسع في البلاد الأندلسية، وأن أغلب إماراته وولاياته دخلت في حوزتهم، وأن معظم أمراء الأندلس سلموا ما بأيديهم للموحدين سواء عن طواعية أو كره منهم، رأى ابن مردنيش أن الحلقة أخذت تضيق عليه وأن مآل إماراته التي جهد من إقامتها، هو الوقوع في أيدي الموحدين، خاصة وبعد أن فقد الكثير من حلفائه؛ ولذلك أخذ الحقد يملأ نفسه وأخذت نفسيته تشد في تصرفاتها، بل وبدا الشك يختمر عنده تجاه عماله وكبار رجالات دولته الذين يعتمد عليهم، ونتيجة لهذه الأحقاد والشكوك والتبيلب الفكري، أخذ يتصرف تصرفات طائشة تكاد لاتصدر إلا عن رجل مجنون. ومنها أنه قتل وزيره ابني الجذع بالجوع، إذ بنى لهما بناء ورماهما فيه ومنع عنهما الأكل حتى ماتا.

كما أنه قتل أخته وطفلها إغراقاً في البحر، وارتكب الكثير جداً من أمثال هذه الأعمال، ولذلك امتلأت منه النفوس رعباً وخاصة أقرب الناس إليه، وتوالت النكبات على ابن مردنيش، ولم يخلصه من مأساته إلا موته المفاجيء عام 567هـ وهو لم يتجاوز من العمر الثامنة والأربعين. وبموته قدم آل محمد بن سعد بن مردنيش طاعتهم

للموحدين، وبذلك آل حكم شرق الأندلس كله إلى الموحيدين وبذلك شملت سيادتهم كل الأندلس الإسلامية⁽¹⁾.

آثار حركة ابن مردنيش على دولة الموحيدين:

لقد تأثرت دولة الموحيدين بحركة التمرد الواسعة في شرق الأندلس وهزت هيبتهم وسلطانهم وقوتهم في نفوس النصارى الإسبان أولاً، ثم أمراء الأندلس ثانياً، ثم المغاربة ثالثاً، وبالرغم من أن الموحيدين استطاعوا آخر الأمر أن يقضوا على إمارة ابن مردنيش، وضم أملاكه ضمن حدود خلافتهم، لقد استطاع ابن مردنيش أن يقف فترة طويلة أمام الموحيدين، وأن يستولي على الكثير من القواعد المهمة التي كانت في أيديهم وأن ينزل بهم الخسائر الفادحة، لقد انشغل الموحدون بحربهم مع ابن مردنيش وركزوا جل قواهم أمام ابن مردنيش مما أتاح الفرصة للطامعين والمتذمرين من أهل المغرب لأن ينتهزوا تلك الفرصة ويشقوا عصا الطاعة، وبذا كانت مقاتلة ابن مردنيش الطويلة للموحيدين، واستنزافه للكثير من جهودهم ورجالهم ووقتهم، كانت إحدى البذور التي أضعفت دولة الموحيدين منذ قيامها⁽²⁾.

ثالثاً: الثورة في المغرب الأقصى:

وفي عام 559 هـ - 1164 هـ قامت قبائل صنهاجة بالثورة ضد خليفة الموحيدين يوسف بن عبد المؤمن وتزعم تلك الثورة مرزوغ الصنهاجي وانضمت إلى تلك الحركة بطون من صنهاجة وغمارة وأوربة وقام الثوار بمهاجمة النواحي ودخلوا تازا، حيث قتل رجالها وسبى نساءها واحتوى أموالها ولم يتوان خليفة الموحيدين في إرسال جيش للثوار ففرض جمعهم وقضى على زعمائهم⁽³⁾.

وكانت هذه الثورة هي أول شرارة للثورات التي قامت في المغرب الأقصى منذ 560 هـ، فقد تبعها ثورة كبيرة أخرى، قادها سبع بن منحفاد وخلفه قبيلة غمارة، وكانت هذه الثورة أخطر من سابقتها على دولة الموحيدين، ولذلك خرج لهم الخليفة الموحيدي على رأس جيوشه الجرارة للقضاء عليها، وفي الثالث من شهر رمضان من سنة اثنتين وستين وخمسائة تمكن الموحدون من إنزال الهزيمة بقبائل غمارة المنحازة

(1) انظر: سقوط الموحيدين، ص 90، 91.

(2) انظر: سقوط الموحيدين، ص 91، 92.

(3) انظر: المصدر السابق، ص 75.

إلى هذا الجبل . وكانت هذه الهزيمة سبباً في دخول الكثيرين من غمارة في طاعة الموحدين وأصبحت قوات الموحدين تحرز انتصاراً بعد انتصار وتلاحق المتمردين من الثوار حتى استطاعت أن تلقي القبض على سبع بن منحفاد ثم قتل وصلب ليكون عبرة لغيره وكان ذلك في عام 562هـ . وهكذا تمكن الموحدون من القضاء على الثورة التي هزت كيان دولتهم وأضعفت قوتهم وأوهنت شوكتهم وبذلك الانتصار اضطرت كثير من القبائل المغربية إلى الطاعة والإذعان لدولة الموحدين .

غير أن الموحدين ما كادوا يقضون على ثورتى صنهاجة وغمارة، حتى التهمت ثورة أخرى في سنة ثلاث وستين وخمسائة (563هـ)، ووقعت بجبل تاسررت في المغرب الأقصى ونواحيه وجرّد جيش موحدي قوي إلى الثوار، بقيادة السيد أبي حنص عمر، تمكن من إخمد الثورة والقضاء على رؤوسها .

بعد ذلك هدأت الأمور في دولة الموحدين بعض الوقت وهدأت البلاد، سواء في المغرب أو الأندلس، ودخلت دولة الموحدين في فترة من الهدوء عمها الاطمئنان وراحة، فانتعشت الزراعة والصناعة وراجت الحركة التجارية⁽¹⁾.

رابعاً: الثورة في المنطقة الشرقية في المغرب الأقصى:

بسبب الظلم الذي تعرض له أهل قفصة في المغرب الأوسط اندلعت ثورة ابن الرند في عام 575هـ واستطاع علي بن المعز المعزز الرندي أن يتخلص من حكم الموحدين في قفصة وساعده عدة أسباب في تحقيق هدفه منها: ما فعله قراقوش التقوي من أعمال ضد سيطرة الموحدين ونجاحه في الاستيلاء على الكثير من البلاد من أيدي الموحدين، وكان قراقوش هذا مرسلأ من قبل الأيوبيين في مصر لضم ما يمكن ضمه للدولة الأيوبية السنية الخاضعة للخلافة العباسية في بغداد، وكما أن الانشغال الذي حدث للموحدين بسبب الثورات في الأندلس والمغرب الأقصى شجع ابن الرند وأهل قفصة في السعي من أجل التخلص من الهيمنة الموحدية المتعصبة لمذهب وعقيدة ابن تومرت المنحرفة، ولذلك اهتم الموحدون بأمر هذه الثورة، وخاصة وأن قراقوش التقوي اشتهر صيته في إفريقية وقوي سلطانه وتحالفت معه قبائل من بني هلال وبني سليم، فخشيت دولة الموحدين من اندلاع الثورات وانتشار أعمال

(1) انظر: سقوط دولة الموحدين، ص 96 - 98 .

التمرد ومن حدوث تحالف ثلاثي في المغرب الأوسط والأدنى بين ابن الرند وقراقوش وقبائل بني هلال وسليم، ولذلك بادر خليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن بالخروج على رأس جيش من مراكش في عام 575هـ واستطاع يوسف بن عبد المؤمن أن يحتل قفصة في عام 576هـ، ثم أخذ الخليفة بعد ذلك في المرور على بعض ولايات إفريقية ومدنها، ليتفقد أحوالها ويطمئن عليها، وبعد أن رتب الخليفة أمور إفريقية رجع إلى قاعدة حكمه وبمعيته قائد ثورة التمرد علي ابن الرند الذي لجأ إلى الخليفة مستسماً وتائباً وطالبا للعفو عند حصار الموحدين لمدينة قفصة⁽¹⁾.

لقد ساهمت الثورات التي حدثت ضد دولة الموحدين في تشجيع ملوك وأمراء الإسبان على الطمع في دولة الموحدين، وأحيت فيهم روح القتال والحرب التي كادت تنتهي في عهد عبد المؤمن بن علي؛ ولذلك تجددت روح العداء للموحدين من جديد⁽²⁾.

خامساً: غزو الخليفة الموحد لبلاد الأندلس:

لما استتب الأمر ليوسف بن عبد المؤمن في بلاد المغرب، انصرف إلى الجهاد في الأندلس وكان أول عبوره لمضيق جبل طارق إلى إسبانية في صفر سنة 655هـ/ 1171م، واستطاع أن يوجه ضرباته الشديدة إلى ابن سعد بن مردنيش الذي توفي عام 567هـ، فتنازل أبناؤه عن أملاكهم كلها للموحدين، فتفرغ بذلك أبو يعقوب يوسف إلى حرب النصرى، ومكث في الأندلس أربعة أعوام، نظم خلالها عدة غزوات ضد النصرى، حقق فيها نجاحات رائعة، ثم عاد إلى مراكش عام 571هـ/ 1176م بعد أن بنى جامع إشبيلية، وأدخل الماء إليها وأقام جسراً على واديه.

واستمرت الحرب بين المسلمين والنصارى في الأندلس على شدتها، برية وبحرية، ولما رأى أبو يعقوب يوسف ضآلة النتائج التي أحرزتها قواته في جهاده ضد النصرى، عبر إلى الأندلس في صفر 580هـ/ 1184م وصمم على قتال مملكة البرتغال التي كانت أشد الأعداء على المسلمين، ووضع خطة تقضي أولاً بمهاجمة مملكة البرتغال من البر والبحر، ثم الزحف على ضفاف نهر التاجة إلى قلب مملكتي قشتالة

(1) انظر: سقوط الموحدين، ص 100.

(2) انظر: سقوط الموحدين، ص 101.

وليون، بينما تنشغل قوات إسلامية أخرى تزحف من الجنوب بقوات النصارى القشتالية والليونية، وساعده في تحقيق خطته حشوده الضخمة، وقوى مسلمي الأندلس. سار أبو يعقوب يوسف على رأس الجيش الرئيسي متجهاً إلى بطليوس، معتزماً حصار إشبونة، وكان عليه قبل أن يتمكن من محاصرتها بنجاح، أن يستولي على قلعة شنترين الواقعة على مقربة منها على ضفة نهر التاجة اليسرى، وعلى ذلك فما كاد يعبر نهر التاجة بجيشه، حتى ضرب الحصار حول قلعة شنترين مؤملاً أن تسقط في يده قبل مقدم الأسطول الذي خصص لمحاصرة أشبونة من جهة البحر.

وبعد أحد عشر يوماً من حصار شنترين بدأ يضربها بآلات الحصار ولم تمض ثلاثة أيام على مهاجمة المدينة، حتى استولى أبو يعقوب عليها، خلا قلعتها، وذلك في 22 ربيع الأول سنة 580هـ، وكان أبو يعقوب يتولى القيادة بنفسه معتبراً القادة الذين معه آلات صماء لتنفيذ مشيئته، وكان ذلك يسبب المرارة الشديدة في نفوس أولئك القادة المجريين، فاعترضوا على تحويل المعسكر من شرقي شنترين إلى شماليها وغربيها، حيث يتعرض الجيش بذلك إلى خطر التطويق من جانب الأعداء ولكن إرادة أبي يعقوب يوسف هي التي نفذت دون سواها، فكان الخطر. ولما دخل الليل أمر أبو يعقوب ولده أبو إسحاق والي إشبيلية أن يبكر في صباح اليوم التالي بالسير في قوات الأندلس والقيام بالهجوم في اتجاه أشبونة، وذلك لكي يحمي الهجوم على قلعة شنترين من التعرض للمفاجأة، فهل وقع سوء فهم، أم كانت ثمة فتنة؟.

إن أبا إسحاق سار في الليل بدلاً من أن يسير في الصباح، وبدلاً من أن يسير في اتجاه أشبونة عاد فعبر نهر التاجة وسار بقوات الأندلس في اتجاه إشبيلية، وما كاد هذا النبأ يذاع بين بقية الجيش، حتى انتشر الاضطراب والروع في أنحاء المعسكر الإسلامي، وتفاقم الأمر، حيث زحف سانو ابن ملك البرتغال على شنترين ليلاً في جيش يبلغ خمسة عشرة ألف مقاتل، وفي تلك الأثناء كان أبو يعقوب قد شرع في تنفيذ خطته لمهاجمة مدينة الكوبازة، بيد أنه حينما تحول بمعسكره إلى المواقع الجديدة، ألقى بنفسه أمام الجيش البرتغالي وجهاً لوجه.

وكان تغيير مواقع المعسكر الذي أمر به أبو يعقوب، خلافاً لنصح قواده، ووجود الجيش البرتغالي في مركز يهدد المسلمين ومسير القوات الأندلسية إلى ما وراء نهر التاجة، وهو ما بدا كأنه أمر غير طبيعي، وأخيراً ذبوع نبأ ما لبث أن تأيد بمقدم جيش آخر من النصارى أعظم من سابقه، كل هذه الأمور بثت في معسكر الموحدون

نوعاً من الرعب العام، ترتب عليه أن غدت أوامر أبي يعقوب لا قيمة لها. وفي صباح اليوم التالي وصل جيش من النصارى يبلغ عشرين ألف مقاتل، وانضم إلى جيش البرتغال الذي يقوده ولي العهد سانشو، وبادر النصارى بمهاجمة الموحدين وهم في اضطرابهم واختلال نظامهم، وساعدت حامية القلعة شنترين جيش النصارى بالخروج من القلعة، ومهاجمة المسلمين⁽¹⁾، ولما كان قسم كبير من الموحدين قد عبر نهر التاجة، فإنه لم يبق لدى أبي يعقوب سوى حرسه الخاص، وقليل من القوات الأخرى، وقوافل العتاد والمتاع التي لم تستطع لحاقاً بباقي الصفوف. ورأى زعيم الموحدين وهو يضطرم سخطاً، أنه وقع ضحية خيانة، أو ضحية سوء تفاهم، لقد وجد نفسه أمام الأعداء وخاض معركة كانت كفة النصارى فيها أرجح، فقد قتل حرس أبي يعقوب وحمل أبو يعقوب على النصارى بسيفه وقتل ستة من الرجال، وأخيراً طعنه أحد النصارى بسيفه طعنة نافذة فسقط على الأرض ملطخاً بدمائه⁽²⁾.

ولما بلغ خبر اشتباك الخليفة مع النصارى رجع الأمير أبو إسحاق بقواته وهاجم بها النصارى وسالت دماء الفريقين غزيرة، فتح المسلمون في نهايتها قلعة شنترين⁽³⁾.

استشهد أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في 12 ربيع الأول 580هـ/24 أيار (يوليو) سنة 1184م وكانت مدة حكمه اثنين وعشرين عاماً.

لقد حمل الجنود خليفتهم إلى إشبيلية، وأرسل منها في تابوت إلى تينملل حيث دفن بجوار أبيه عبد المؤمن⁽⁴⁾.

سادساً: أسباب فشل أبي يعقوب يوسف في توحيد الأندلس:

لم يستطع السلطان يوسف بن عبد المؤمن أن يحقق نصراً حازماً على النصارى في الأندلس لعدة أسباب منها:

1 - لم تكن قيادة يوسف بن عبد المؤمن قد وصلت إلى درجة النضج العسكري والسياسي، ولذلك نجده يحشد الجيوش الكبيرة التي تحتوي على عناصر مختلفة من

(1) انظر: الأراك، شوقي أبو خليل، ص 42.

(2) انظر: المصدر نفسه.

(3) انظر: المصدر السابق نفسه.

(4) انظر: المغرب الكبير (2/ 801).

قبائل بني هلال وسليم وقبائل الموحدين ومقاتلة الأندلس والجند الموحد، وليست لهذا الجيش خطة مرسومة يسير عليها، كما حدث عند غزوه لمدينة وبدة عام 567هـ حيث كان قرار الغزو جاء متأخراً عن وقت وصوله إلى الأندلس بقرار فردي من الخليفة الموحد والذي كان هو صاحب الرأي النهائي والقاطع في إدارة قيادة الجيش، وكان من سماته أخذه للقرارات بسرعة مذهلة وبدون ترو أحياناً، فهو قرر أن تكون وجهة حملته الكبيرة مدينة ونده، بمجرد اقتراح وفد شرق الأندلس ذلك عليه، ثم إنه أثناء مسيره إلى ونده، غير وجهة مسيرة الجيش لافتتاح حصني بلج والكرسي وذلك لمجرد اقتراح ابن همشك عليه بذلك.

2 - ومما يعيب كفاءة خليفة الموحد، عدم تقديره للظروف وعدم قدرته على الوصول إلى هدفه من أيسر الطرق، وعلى سبيل المثال ما حدث من رفضه لعرض أهل مدينة ونده تسليم مدينتهم مقابل حصولهم على الأمان وكان من المشرف له أنه قبل هذا العرض وحصل على المدينة بدون أي جهد كان.

3 - كانت للخليفة الموحد ميولات فكرية طغت على الاهتمامات العسكرية والسياسية، ولذلك نجد الخليفة الموحد بدلاً من أن يكون مشرفاً على تسيير دفعة المعارك وهو القائد الوحيد والمسئول الأول، مشغولاً بمناقشة مسائل فكرية لا تمت إلى المواقف العسكرية بصلة، فعندما كانت جيوش الموحد تحاصر مدينة ونده جاء أحد قادة الموحد وطلب من الخليفة إمداده ببعض الجند حتى يتمكن من إحراز النصر، لم يلتفت إليه واستمر في مناقشة تلك المسائل⁽¹⁾.

4 - لم يكن ولاء المسلمين قوي لدولة الموحد؛ ولذلك كلما تحين فرصة للطعن فيها والثورة عليها يستغلها خصومهم الذين تعرضوا للظلم والقهر من زعماء الموحد.

5 - انتشار الخيانة في أداء الواجب والتعدي على أموال الدولة من قبل الولاة في عهد يوسف بن عبد المؤمن؛ ولذلك اضطر الخليفة لمحاسبة الولاة ومعاقبة الجناة في الأموال التي اغتصبوها، وفيهم من البلاد ووصل الأمر بالبعض إلى أن أنزل بهم عقوبة الإعدام، لقد شمل ظلم الولاة الكثير من رعايا الدولة وتولدت قاعدة عريضة

(1) انظر: سقوط الموحد، ص 120.

من المجتمع تعارض سياسة الولاة الظالمة القمعية وواصلوا جهادهم السلمي بمطالبة الدولة بمحاسبة بعض الولاة، واضطر الخليفة لمحاسبة بعض مسؤولي الدولة ومن أشهر هذه الحوادث:

- محاسبة محمد بن أبي سعيد مسئول الأعمال المخزنية في إشبيلية وثبتت عليه خيانة للدولة فسودرت أمواله وممتلكاته وامتنحن في نفسه طويلاً ثم ضرب عنقه وكان ذلك عام 573هـ⁽¹⁾.

6 - انتشار الطاعون في المغرب والأندلس في زمن يوسف بن عبد المؤمن في عام 571هـ، واستمر لمدة عام تقريباً بالمغرب الأقصى وامتد إلى الأندلس وإلى المغرب الأوسط والأدنى. وقد قضى على الكثيرين من السكان وعلى بعض زعماء دولة الموحيدين منهم أربعة من أبناء عبد المؤمن بن علي. وقد أصيب الخليفة الموحيدي نفسه وأخوه السيد أبو حفص عمر، ولكنهما شفيا من المرض وعوفيا، وكاد هذا المرض أن يقضي على من كان بدور الخليفة وأهله، أما أهل مدينة مراكش فقد قضى على الكثيرين منهم وضاق المصلى بالموتى، فأمر الخليفة بأن يصلى عليهم في عامة مساجد مراكش، ونتيجة لهذا الوباء الفاتك، فقد خيم جو من الكآبة والحزن على مراكش الزاهرة، ولم يعد يخرج منها أحد أو يأتي وافداً إليها⁽²⁾.

ومن كبار الشخصيات التي قضى عليها هذا الوباء الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي، وهو أحد طبقة الجماعة، ومن كبار الشخصيات التي ساهمت في إقامة دولة الموحيدين، وقد كان قادماً من قرطبة إلى مراكش فأصيب في الطريق ومات عام 571هـ، وكان لهذا الوباء الذي فتك بالكثيرين من أهل المغرب والأندلس أثره في إضعاف المعنويات، وفي قلة الأيدي العاملة، وتعطل التجارة، وتوقف الحياة الزراعية والصناعية، وقد ترتب على ذلك أزمة اقتصادية حادة كانت ذات أثر مادي ومعنوي سيئ على الرعية، وشجعت هذه الظروف العصيبة التي تمر بها دولة الموحيدين ممالك وإمارات النصرارى من النيل من الموحيدين؛ ولذلك نقضت تلك الممالك والإمارات المعاهدات التي بينها وبين الموحيدين؛ وأخذت تعبت في بلاد الأندلس بالفساد⁽³⁾.

(1) انظر: سقوط الموحيدين، ص 127.

(2) المصدر السابق، ص 129.

(3) المصدر نفسه.

«وكان الناس من ضعف المرض لا يستطيعون الحركة»⁽¹⁾ ونتيجة لهذه الظروف القاسية لم يستطع الموحدون أن يقوموا برد حاسم على التو والحين⁽²⁾.

7 - تمرد قبيلة هرغة على الخليفة الموحدية: وهذه القبيلة ينحدر منها محمد ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين، ففي سنة 578هـ وصلت الأخبار إلى الخليفة الموحدية في مراكش بأن قبيلة هرغة قد استولت على معدن الفضة الذي يستخرج بقربهم من جبل السوس فاهتم الخليفة لهذا الحادث لأمرين:

الأمر الأول: وهو وجوب القضاء على تمرد هذه القبيلة التي تشعر بسموها لانتهائها إلى ابن تومرت وخوفاً من التفاف قبائل الموحدين حولها.

والأمر الثاني: فإن معدن الفضة يمثل مورداً مالياً مهماً لخزانة الموحدين، ولذلك فإن فقده يصيب هذه الخزنة بضربة عنيفة.

ولذلك بادر الخليفة بالخروج من مراكش في صفر سنة 578هـ على رأس قواته. ولما وصل إلى جبل السوس أرغم قبيلة هرغة على تجديد الولاء والتوبة مما ارتكبتها واسترجع منها ما كانت اغتصبته من المعدن. ثم بعد ذلك أمر ببناء حصن منيع حول المنجم، ووضع عليه جنداً لحراسته، لقد كان لهذه الثورة أثر في إضعاف شوكة الموحدين واضطراب هيبتهم وتشجيع خصومهم على محاربتهم⁽³⁾.

8 - ضعف التكتيك العسكري عند الخليفة الموحدية وحرصه على أن يتولى جميع الأمور بنفسه وعدم إصغائه لنصح الناصحين، ويظهر ضعف تكتيكة العسكري في حصر جيوشه الضخمة في مهاجمة نقطة صغيرة، كما فعل ذلك في مهاجمته لمدينة ونده وشنترين على التوالي، مما أتاح لملوك وأمراء الإيبان التحالف فيما بينهم ومواجهة الموحدين وهم في مركز قوة.

ولو اعتمد أسلوب الكر والفر بالجيوش الصغيرة ذات القوة والحركة السريعة لجعل الإيبان يضطرون إلى مدافعة كل فريق عن مملكته وإمارته وإلى مواجهة الموحدين متفرقين مع حالة الضعف تؤدي إلى انهزام النصارى⁽⁴⁾.

(1) البيان المغرب (110/3).

(2) انظر: سقوط دولة الموحدين، ص 129.

(3) انظر: سقوط الموحدين، ص 131.

(4) المصدر السابق، ص 145.

9 - استطاع النصارى أن يوحّدوا صفوفهم وجهودهم ضدّ الموحدين ويتخذوا موقفاً عدائياً واحداً منهم⁽¹⁾.

هذه أهم الأسباب التي منعت خليفة الموحدين من ضمّ الأندلس للمغرب ومن ثمّ الانطلاق لتوحيد العالم الإسلامي تحت لوائهم ونفوذهم وسلطتهم، لقد كان يوسف بن عبد المؤمن يتطلع إلى توحيد العالم الإسلامي كله، وقد عبر عن تلك الرغبة بوضوح شاعر الموحدين أبو العباس ابن عبد السلام الجراوي في بعض أشعاره في قوله يمدح خليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن:

ستملك أرض مصر والعراقا ويجري نحوك الأمم استباقاً⁽²⁾

إلا أن قدرته ومواهبه كانت محدودة، ولم يتح الفرصة لظهور قادة عظام من الذين يستطيعون أن ينظموا ويقودوا الجيوش الضخمة بعكس يوسف بن تاشفين الذي أبدع في صقل قاداته ودفعهم نحو المعالي، فعرفوا كيف ينزلون الهزائم بالإسبان.

وعلى أي حال فأبو يعقوب يوسف كان دائماً رجلاً مريضاً وفي تتبعنا لتاريخه نجد أنه يصاب بالمرض المرة بعد المرة، حتى لقد ظلّ مرة سنة كاملة مريضاً طريح الفراش، ولهذا يذهب بعض المؤرخين إلى أنه مات إثر مرض أصابه أثناء الحصار⁽³⁾.

توفي أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في السابعة والأربعين من عمره، وكان رجلاً شهماً بذل أقصى جهده في بناء الدولة، وهو يعد من كبار الخلفاء والسلاطين في تاريخ المغرب الإسلامي⁽⁴⁾.



(1) سقوط الموحدين، ص 154.

(2) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، العبادي ص 115.

(3) انظر: معالم تاريخ المغرب والأندلس، حسين مؤنس، ص 194.

(4) انظر: نفس المصدر.

المبحث الثالث

أبو يوسف يعقوب المنصور

أولاً: اسمه وشيء من سيرته:

هو أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن بن علي، القيسي الكومي صاحب بلاد المغرب - كان صافي السمرة جداً، إلى الطول ما هو، جميل الوجه أفوه أعين شديد الكحل ضخم الأعضاء جهوري الصوت جزل الألفاظ، من أصدق الناس لهجة وأحسنهم حديثاً وأكثرهم إصابة بالظن، مجرباً للأمر ولي وزارة أبيه، فبحث عن الأحوال بحثاً شافياً وطالع مقاصد العمال والولاء وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور، ولما مات والده اجتمع رأي أشياخ الموحدين وبني عبد المؤمن على تقديمه فبايعوه وعقدوا له الولاية ودعوه أمير المؤمنين كأبيه وجده ولقبوه بالمنصور، فقام بالأمر أحسن قيام، وهو الذي أظهر أبهة الملك ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع ونظر في أمور الدين والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين كما أقامها في سائر الناس أجمعين، فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات⁽¹⁾.

ولما مات أبوه كان معه في الصحبة، فباشر تدبير المملكة من هناك، وأول ما رتب قواعد بلاد الأندلس، فأصلح شأنها وقرر المقاتلين في مراكزها ومهد مصالحها في مدة شهرين⁽²⁾.

أ - إصلاحاته في منهج دولة الموحدين:

صرح زمن حكمه بعدم صحة الاعتقاد بعصمة ابن تومرت⁽³⁾ وجالس الصلحاء

(1) وفيات الأعيان (4/7).

(2) المصدر نفسه.

(3) انظر: سير أعلام النبلاء (316/21).

والمحدثين ومال إلى الظاهرة، وأعرض عن كتب المالكية، وأحرق ما لا يحصى من كتب الفروع⁽¹⁾.

قال عبد الواحد بن علي: كنت بفاس فشهدت الأحمال يؤتى بها، فتحرق، وتهدد على الاشتغال بالفروع، وأمر الحفاظ بجمع كتاب في الصلاة من «الكتب الخمسة»، و«الموطأ»، ومسند ابن أبي شيبة ومسند البزار وسنن الدارقطني وسنن البيهقي وكان يملي ذلك بنفسه على كبار دولته وحفظ ذلك خلق، فكان لمن يحفظه عطاء وخلعة⁽²⁾. وكان لا يحب التعمق في آراء الفقهاء البعيدة عن الدليل، قال مرة لعبد الواحد بن علي: «أنا أنظر في هذه الآراء التي أحدثت في الدين، أرأيت المسألة فيها أقوال، ففي أيها الحق؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد؟ فافتتحت أبين له، فقطع كلامي، وقال: ليس إلا هذا، وأشار إلى المصحف، أو هذا، وأشار إلى (سنن) أبي داود، أو هذا، وأشار إلى السيف⁽³⁾. قلت: والذي ينبغي للحاكم أن يوسع دائرة المذاهب والاطلاع ما دامت على أصول أهل السنة والجماعة وهذا ما فعله السلطان الكبير والقائد الفذ نور الدين محمود زنكي حيث ترك مذاهب أهل السنة والجماعة تنشط في دعوتها ودعم مدارس المالكية والحنابلة والشافعية مع كونه حنيفياً، واهتم بالمحدثين ووفر لهم ما يحتاجون من أجل تبليغ رسالتهم، وكذلك القراءة والحفاظ وبذلك الفعل الجميل استطاع أن يجند أهل السنة والجماعة ضد الرافضة وضد النصارى وواصل السير بعد وفاته تلميذه المخلص صلاح الدين وتحققت الانتصارات الكبرى والفتوحات العظمى.

إن هذا التضييق الذي فعله أبو يوسف يعقوب الناصر وبعض حكام الموحدين جعل أسباب تفجر الثورات الداخلية متواجداً.

لقد نظر الموحدون إلى الذين خالفوهم في ميدان العقائد والمبادئ نظرة معادية اتسمت بالحقد والكراهية، على أنهم من غير أهل الإيمان فعاملوهم بقسوة بالغة، مما أثار لدى بعض العلماء والفقهاء موجة من الذعر والخوف، ولعل أوضح مثال على هذه الحالة ما جاء على لسان الوهراني بعد سقوط دولة المرابطين بقوله: «لما تعذرت

(1) سير أعلام النبلاء (21/313).

(2) المصدر السابق (21/314).

(3) المصدر السابق نفسه.

مآربي واضطربت مغاربي، ألقيت جبلي على غاربي، وجعلت من مذهبات الشعر بضاعتي من أخلاق الأدب رضاعتي»⁽¹⁾.

وعبر الوهراني عن كرهه الشديد للموحدين من خلال جواب على سؤال حول رأيه في عبد المؤمن بن علي الموحدي وأولاده وسيرته ببلاده فقال: «مؤيد من السماء خواض للدماء مسلط على من فوق الماء حكم سيفه في المعمم وأعمله في رقاب الأمم.. ولو أن للعلم لساناً والورقة إنساناً لتألمت وتظلمت.. ولكن السكوت على هذا الحال أرجح ومسالمة الأفاعي أنجح»⁽²⁾.

وهذا أبو الوليد محمد بن عبد الله القرطبي، الذي يصف المقرئ أحواله في كتاب نفع الطيب بقوله: «وخرج من الفتنة بعد ما علا ذكره في قرطبة وأقام بالإسكندرية خوفاً من بني عبد المؤمن بن علي، ثم قال: كأني والله بمراكبهم قد وصلت إلى الإسكندرية، ثم سافر إلى مصر، وأقام بها مدة ثم قال: فوالله ما مصر والإسكندرية بمتباعدين، ثم سافر إلى الصعيد وحدث بقوص بالموطأ ثم قال: ويصلون إلى هذه البلاد ولا يحجون ما أنا إلا هربت منه إليه، ثم دخل اليمن ولما رآها قال: هذه أرض لا يتركها بنو عبد المؤمن فتوجه إلى الهند، حيث أدركته منيته بها سنة 551هـ وقيل باليمن»⁽³⁾.

ولله درّ الإمام مالك في نصحه لأبي جعفر المنصور العباسي عندما أراد أبو جعفر أن يحمل الناس على الموطأ:

قال أبو مصعب: سمعت مالكا يقول: دخلت على أبي جعفر بالغدادة حين وقعت الشمس بالأرض، وقد نزل عن شماله إلى بساط، وإذا بصبي يخرج ثم يرجع، فقال: أبو جعفر: أتدري من هذا؟ قال: لا، قال: هو والله ابني وإنما يفزع من شيبتك، وحقيق أنت بكل خير، وخليق بكل إكرام، يقول مالك: وقد كان أدناني، وألصق ركبته بركبتي، فلم يزل يسألني حتى أتاه المؤذن بالظهر، فقال لي: أنت أعلم الناس، فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين، فقال: بلى ولكنك تكتم ذلك، ولئن بقيت لأكتبن كتابك بماء الذهب، ثم أعلقه في الكعبة، وأحمل الناس عليه. فقلت: يا أمير

(1) الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق، د. علي أحمد، ص 86.

(2) نفس المصدر السابق، ص 85، 86.

(3) الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق، ص 87.

المؤمنين لا تفعل، فإن في كتابي حديث رسول الله ﷺ، وقول الصحابة، وقول التابعين، ورأياً هو إجماع أهل المدينة لم أخرج عنهم، غير أنني لا أرى أن يعلق في الكعبة⁽¹⁾.

وفي رواية: يا أمير المؤمنين إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في البلاد، فأفتى كل في مصره بما رآه «فلم يزل يؤخذ عنهم كابراً عن كابر إلى يومنا هذا، فإن ذهبت تولهم عما يعرفون إلى ما لا يعرفون رأوا ذلك كفراً، فأقِرَّ كل أهل بلد على ما فيها من العلم، وخذ هذا العلم لنفسك»⁽²⁾.

لقد كان عصر أبي يوسف يعقوب الناصر من أفضل عصور دولة الموحدين ولا يمنع ذلك أن نعلق على بعض الأخطاء التي حدثت في فترته، وإن كان الرجل استطاع أن يصلح بعض الانحرافات العقديّة عند الموحدين مثل زعمهم العصمة لابن تومرت⁽³⁾ وينكر على من قدم كتبه على كتاب الله وسنة ورسوله ﷺ.

ذكر الذهبي أن أبا يوسف يعقوب المنصور سأل الفقيه أبا بكر بن هاني الجبالي ما قرأت؟ قال: تواليف الإمام - يعني ابن تومرت - قال: فزورني⁽⁴⁾، وقال: ما هكذا يقول الطالب! حكّمك أن تقول: قرأت كتاب الله، وقرأت من السنة، ثم بعد ذلك قل ما شئت⁽⁵⁾.

وكان مجلسه عامراً بالعلماء وأهل الخير والصلاح، يقول تاج الدين ابن حموية: دخلت مراکش في أيام يعقوب، فلقد كانت الدنيا بسيادته مجمّلة، يقصد لفضله ولعدله ولبذله وحسن معتقده، فأعذب موردي، وأنجح مقصدي، وكانت مجالسه مزينة بحضور العلماء والفضلاء، تفتح بالتلاوة ثم الحديث، ثم يدعو هو، وكان يجيد حفظ القرآن، ويحفظ الحديث، ويتكلم في الفقه، وينظر، وينسبونه إلى مذهب الظاهر. وكان فصيحاً، مهيباً، حسن الصورة، تام الخلافة، لا يرى منه اكفهرار، ولا من مجالسه إعراض، بزي الزهاد والعلماء، وعليه جلاله الملوك، صنف

(1) انظر: الإمام مالك بن أنس، عبد الغني الدقر، ص 133.

(2) نفس المصدر السابق، ص 134.

(3) انظر: سير أعلام النبلاء (316/21).

(4) أي: نظر إليه نظرة المغضب.

(5) انظر: سير أعلام النبلاء (316/21).

في العبادات، وله (فتاوى)، وبلغني أن السودان⁽¹⁾ قدموا له فيلاً فوصلهم، وردّه، وقال: لا نريد أن نكون أصحاب الفيل، وكان يجمع الزكاة ويفرقها بنفسه، وعمل مكتباً للأيتام، فيه نحو ألف صبي، وعشرة معلمين. حكى لي بعض عماله: أنه فرق في عيد نيفاً وسبعين ألف شاة⁽²⁾.

وكان يهتم بطلاب العلم الذين يأتون من الآفاق، وقال ذات مرة: يا معشر الموحدين، أنتم قبائل، فمن نابه أمر، فزع إلى قبيلته، وهؤلاء - يعني طلبة العلم - لا قبيل لهم إلا أنا، فعظموا عند الموحدين⁽³⁾.

وكان يجمع الأيتام في العام، فيأمر للصبي بدينار وثوب ورغيف ورمانة، واهتم بالمرضى وبنى لهم مارستان وغرس فيه من جميع الأشجار، وزخرفه وأجرى فيه المياه، ورتب له كل يوم ثلاثين ديناراً للأدوية، وكان يعود المرضى في الجمعة⁽⁴⁾. ولم تكن للفلاسفة عنده مكانة وأحرق كتبهم واهتم بالطب والهندسة⁽⁵⁾. وحارب الخمر في ملكه وتوعد عليها فعدمت⁽⁶⁾.

قال عنه ابن كثير: «كان ديناً حسن السيرة صحيح السريرة، وكان مالكي المذهب، ثم صار ظاهرياً حزمياً، ثم مال إلى مذهب الشافعي واستقضى في بعض بلاده منهم قضاة، وكانت مدة ملكه خمس عشرة سنة، وكان كثير الجهاد ﷺ، وكان يؤم الناس في الصلوات الخمس، وكان قريباً إلى المرأة والضعيف ﷺ⁽⁷⁾».

وقال عنه ابن العماد: «كان ذكياً شجاعاً مقداماً محباً للعلوم كثير الجهاد ميمون التقية ظاهري المذهب، معادياً لكتب الفقه أباد منها شيئاً كثيراً بالحريق وحمل الناس على التشاغل بالأثر⁽⁸⁾».

(1) تطلق على بلاد غرب إفريقيا وجنوب الشمال الإفريقي سابقاً.

(2) انظر: سير أعلام النبلاء (314/21).

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) المصدر السابق (315/21).

(5) المصدر السابق (317/21).

(6) نفس المصدر السابق (318/21).

(7) البداية والنهاية، المجلد السابع، الجزء (22/13).

(8) شذرات الذهب (321/4).

وربما كان فعل أبي يوسف بن يعقوب المنصور في حرقه لكتب الفروع إنما كان من أجل مؤلفات ابن تومرت والتي أخذ كثير من الموحدين بما فيها دون سواها، ولا أستبعد أن يكون هذا العمل من قبل أبي يوسف يعقوب المنصور إنما كان من أجل مؤلفات ابن تومرت لكنه لم يستطع أن يفردها دون غيرها حتى لا يثير الناس⁽¹⁾.

إن هذا السلطان طلب من أبي العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المري - أحد المقربين إليه - أن يشهد له بين يدي الله ﷻ بأنه لا يقول بالعصمة - يعني عصمة ابن تومرت - ولم يكتف المنصور بهذا بل إنه حاول إرجاع الناس إلى الكتاب والسنة واستئصال ونبد تعاليم ابن تومرت التي توغلت في قلوب بعض الناس في المغرب والأندلس.

ولقد استخف السلطان يعقوب بن يوسف بمن بالغوا في تعظيم ابن تومرت وتقديسه، والعمل بما قال به، أو دعا إليه، «لأنه لا يرى شيئاً من هذا كله وكان لا يرى رأيهم في ابن تومرت..»⁽²⁾.

ولعل هذا الشعور هو الذي دفعه إلى أن يؤثر في الطلبة الذين جاءوا من أنحاء بلاد المغرب والأندلس لطلب العلم في حاضرة الدولة على شيوخ الموحدين الذين تأصل حب ابن تومرت وما دعا إليه في نفوسهم، فلما بلغه حسد شيوخ الموحدين لهؤلاء الطلبة على مكانتهم عنده وتقريبه لهم خاطبهم قائلاً: «.. يا معشر الموحدين أنتم قبائل فمن نابه منكم أمر فرع إلى قبيلته وهؤلاء - يعني الطلبة - لا قبيل لهم إلا أنا فمهما نابهم أمر فأنا ملجؤهم وإليّ فزعهم وإليّ ينتسبون»⁽³⁾.

إن الخليفة الثالث للموحدين عمل على محو الباطل من دعوة ابن تومرت وسعى لتقويضه بعد نصف قرن من انتشار تعاليم ابن تومرت، وهي مدة قصيرة في عمر الدعوات؛ لأن ما تحمله دعوة ابن تومرت من جنوح في بعض أفكارها جعلت أقرب الناس منها يسعون لتقويضها ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصَلِّحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: 81]. ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ... ﴾ [الرعد: 17]

إن المنصور الموحي لم يعلن صراحة بطلان ما دعا إليه ابن تومرت، لأن

(1) ربما هذا التعليل لا يكون صحيحاً.

(2) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، ص 575.

(3) انظر: نفس المصدر السابق، ص 576.

الكثير من الناس ببلاد المغرب الأقصى لا سيما العامة وشيوخ الموحدين، وزعماء القبائل، قد تعلقوا بدعوة ابن تومرت، واقتنعوا بصحة ما قال به أو دعا إليه، فلو واجههم المنصور بالنقد الصريح أو العمل الجاد للقضاء على دعوة ابن تومرت لنشأ عن ذلك رد فعل خطير من قبل أولئك القوم قد لا يستطيع رده أو التصدي له، وهذا بلا شك جعله يكتفي ببيان موقفه منها دون اتخاذ أي خطوات عملية ضدها، ولكن بالرغم من قلة ما قام به المنصور من جهد، أو عمل مضاد لدعوة ابن تومرت، إلا أن عمله هذا كانت له نتائج إيجابية وطيبة، حيث إنه بهذا الإجراء كسر ذلك السياج الذي أحيطت به دعوة ابن تومرت، مما دعى الكثير من الموحدين لا سيما المنصفين منهم إلى التمعن في حقيقة دعوة ابن تومرت ودراستها بموضوعية وإنصاف، فبانت لهم حقيقتها وما تحمله من جنوح في تفكيرها مما دفعهم إلى الأخذ بالتحلل من تعاليمها شيئاً فشيئاً⁽¹⁾.

ثانياً: سياسة أبي يوسف يعقوب المنصور في الحروب:

تعتبر السنوات الخمس عشرة التي حكمها أبو يوسف يعقوب المنصور، ثالث الخلفاء الموحدين، العصر الذهبي للدولة الموحدية والذروة التي وصل إليها التطور السياسي في المغرب نحو التوحيد وإقامة الدولة الكبرى الموحدية.

ولقد كان ذلك العصر الذهبي قصيراً، لا يتناسب مع دولة ضخمة مترامية الأطراف غزيرة الثروة والموارد مثل دولة الموحدين، فإن خلفاء الموحدين حكموا بلاداً تضاهي ما حكمه العباسيون في أوج قوتهم، وكانت تحت إمرتهم حشود من الجند القوي القادر على كسب المعارك لم تتيسر للكثير من الدول في التاريخ الإسلامي، فقد كانت جيوش الموحدين تعج بحشود من أبناء القبائل المغربية من المصامدة أولاً، ثم من بقية الصنهاجيين والزناتيين ممن اجتذبتهم الدولة الموحدية بقوتها وهيبتها، ثم أضيفت إلى هؤلاء حشود من العرب الهلاليين الذين انضموا تحت لواء الدولة الكبيرة، ولم يخل الأمر من قوات أندلسية ذات قدرة ومهارة⁽²⁾.

رغم هذه القوات كانت القوة العسكرية الموحدية دائماً مفككة، تنقصها القيادة

(1) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، ص 575.

(2) انظر: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 194.

الحازمة التي تقبض على الجيش قبضة محكمة، وتوجه الأعمال وفق خطة واحدة مرسومة، وكان أبو يوسف يعقوب المنصور من زعماء الموحدين القلائل الذين استطاعوا قيادة جيوشهم قيادة سليمة حكيمة، وكان الرجل في نفسه كذلك رجلاً حازماً موهوباً في شئون الإدارة والقيادة العسكرية، وكان شديد الإيمان فانتقل إيمانه إلى رجاله وكسبت جيوش الموحدين في أيامه قوة ضاربة كبرى⁽¹⁾.

أ - الصراع مع بني غانية المرابطين:

استطاع بنو غانية أن يقودوا ثورة في المغرب الأوسط ضد الخليفة أبي يعقوب يوسف المنصور، واستطاعوا أن يحتلوا مدينة باجيه بأربعة آلاف من الطوارق الملتحين بسبب ضعف حامية الموحدين هناك، وكان من سوء حظ دولة الموحدين أن ابتليت بمشكلة بني غانية التي لم تقدرها الدولة حق تقديرها وأصبحت في النهاية من أسباب سقوط الدولة.

كان زكريا بن يحيى بن غانية قد تولى بعض الأعمال في قرطبة في عهد الخليفة المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين ثم تولى أخوه ابن غانية حكم جزر البليار وهي الجزر الشرقية منذ عام 541هـ/1146م وظل يحكمها حتى سقطت دولة المرابطين وعندما بسط الموحدون سلطانهم على الأندلس ظل بنو غانية لا يخضعون لسيطرتهم وظل عدم خضوعهم حتى موت محمد بن مرادنش عام 567هـ/1171م، وبسط الموحدون سيطرتهم على بلنسية ومرسية وشاطبة وبلاد الساحل الشرقي وكان على حكم جزر البليار في ذلك الوقت محمد بن إسحاق بن محمد بن غانية، وقد كان يريد الدخول في طاعة الموحدين، لكن إخوته عزلوه ورفضوا ذلك وولوا بدلاً منه أخاه علي بن إسحاق الذي بادر بإعلان الثورة على الموحدين وخاض ضدهم معركة طويلة الزمن.

ويرجع أصل بني غانية إلى قبيلة مسوفة الصنهاجية وعرفوا ببني غانية على اسم أمهم وأمثال هذه التسميات كانت معروفة عند المرابطين.

لقد كان بنو غانية شوكة ضد الموحدين، وكانوا من خيرة المجاهدين ضد القوى الصليبية، واشتهروا بالغزو البحري لجنوب فرنسا وقطلونيا، وساروا على سنة أسلافهم في العقائد والتزام منهج أهل السنة والدعاء للخليفة العباسي في بغداد واتخاذ ألويتهم

(1) معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 195.

السوداء شعاراً لهم وهادنوا الموحيدين بعض الوقت، ولما مات الخليفة الموحيدي يوسف بن عبد المؤمن واضطربت أحوال الدولة الموحدية بعض الشيء استغل بنو غانية هذا الاضطراب وأظهروا العصيان وخرجوا عن سياسة المهادنة، واستولوا على أسطول موحيدي ضخم عندما كان في زيارة الجزر الشرقية، ثم خرجوا بأساطيلهم ورجالهم إلى المغرب الأوسط عام 581هـ/1185م وتحالف بنو غانية مع قبائل بني سليم وبني هلال ومع جنود الغزو المملوكي الذي كان يقوده قراقوش التقوي وأعلنوا ولاءهم للدولة العباسية ورفع شعارهم، وأصبح المغرب الأوسط والأدنى تابعاً وخاضعاً لأتباع الخلافة العباسية.

وكان أول عمل قام به المنصور يعقوب بن يوسف هو الشروع للقضاء على بني غانية، فأرسل العيون والأعوان إلى المغرب الأوسط وإفريقيا وحاول تفكيك التحالف الثلاثي بين بني غانية والقبائل العربية أتباع قراقوش، وواعد زعماء القبائل وأعيان البلدان بالعمو والإحسان وشرع في إرسال الجيوش تتلوها الجيوش، وانكسرت بعض جيوش الموحيدين وارتفعت معنويات بني غانية أمام الموحيدين، إلا أن السلطان يعقوب بن يوسف استمر في إرسال الحملات وفقد الألوف من جنوده ومن خيرة رجاله، وأنفق الملايين من الأموال وكان بنو غانية وحلفاؤهم قد اتخذوا الصحراء ملجأهم فكلما تضيق عليهم الدائرة يفرون إلى الصحراء ثم لا يلبثوا أن يعودوا من جديد، واستمرت هذه المعارك سنوات طويلة ولكن في النهاية استطاع أبو يوسف يعقوب بن يوسف أن يسحق هذه الثورة العنيفة ويقبض على زعمائها وقاد العمليات العسكرية بنفسه عام 582هـ/1168م وجعل من مدينة تونس مقراً لقيادته، واستطاع بفضل حزمه وشجاعته أن ينتصر على الثوار وفر علي بن غانية إلى الصحراء وظل بها إلى أن مات عام 584هـ وانضم إلى جيوش الموحيدين كثير من الأعراب والأتراك واستطاع يعقوب بن يوسف أن يوحد بلاد المغرب كلها غربها وشرقها إلى المحيط الأطلسي غرباً. لقد استعمل يعقوب بن يوسف الدهاء والمكر والحنكة والسياسة والمال ضد خصومه، وقبل رجوعه إلى المغرب الأقصى رتب أمور القبائل ونظم أمور الولاية، واهتم بإدارة الأموال، ونقل معه كثيراً من القبائل العربية إلى المغرب الأقصى، ليستخدمها في الجهاد ضد النصارى ويأمن من ثوراتها المستمرة.

لقد استطاع أبو يعقوب يوسف المنصور أن يؤمن خط ظهره ويوحد الجبهة الداخلية وأعاد تنظيم البيت المغربي الموحيدي من الداخل، وأمن خطر القبائل العربية

ووظف طاقاتها في حربه في الأندلس، لقد كان هذا العمل الحاسم القوي في توحيد الجبهة الداخلية سبباً من أسباب انتصاره على النصارى في الأندلس في معركة الآراك الكبيرة.

لقد كانت أهداف أبي يوسف يعقوب المنصور واضحة المعالم في حركته ولذلك أرجأ جهاد النصارى في الأندلس إلى حين الانتهاء من مشاكل بني غانية وحلفائهم وهذا يدل على عمق تفكيره الإستراتيجي وبعد نظره العسكري⁽¹⁾.

إننا - ونحن ندرس التاريخ - أمام درس عظيم ومهم في حياتنا المعاصرة ألا وهو إذا أردنا بالفعل استرداد الأندلس فإن ذلك الأمر العظيم وهذا الهدف السامي الجميل يسبقه عمل جاد ومتواصل من أجل توحيد بلاد المغرب على أصول منهج أهل السنة والجماعة، وبعد ذلك تبدأ حركة الدعوة والجهاد المقدس نحو أراضينا المفقودة وعزنا المنشود.

إن تحرير بيت المقدس ما تم ذلك الفتح الميمون إلا بعد توحيد العراق ومصر والشام وإزالة البدع بالحجة والبرهان وقلع دولة الرافضة بالسيف والسنان مع التدرج المدروس والهمة العالية في تحقيق الأهداف السامية.

ب - جهاده في الأندلس :

بعد استشهاد السلطان الموحيدي أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في الأندلس 580هـ هدأت الحرب بضعة أعوام لسببين مهمين :

1 - انشغال الموحيدين بثورات قامت في إفريقية، ومرض أبي يوسف المنصور في مراکش، فقد كان يرغب في تولي أمر الجهاد بنفسه.

2 - الخلاف الذي وقع بين ملوك الإسبان في تلك الفترة، فحرص الملك ألفونسو على عدم إثارة المسلمين ضده فيغريهم بالسير إلى غزوه ولكن بعد وفاة المطران (جونزالو) وتعيين (مارتن دي بسيرجا) مطراناً لطليطلة، شرع الأخير في زرع الحقد والبغض وتأجيج صدور النصارى الإسبان ضد المسلمين، وعمل على إعداد حملة كبيرة في الأندلس مع التنسيق مع القوة السياسية والعسكرية والنصرانية الحاكمة، وبالفعل تم للنصارى ما خططوه وقاد ذلك المطران الحاقد حملة دمرت كل شيء في

(1) انظر: موسوعة المغرب العربي (31/ 224 - 227).

طريقها بالنار والسيف، وشرعت تلك الحملة الحاقدة في تدمير مدن وقرى المسلمين القريبة منهم، فانتسفت الغلات والكروم، وقطعت أشجار الزيتون، وخربت الضياع والقرى، وسيقت الماشية، وسبي المسلمون العزل رجالاً ونساء، وقتل قسم كبير منهم، وزحفت قوى من فرسان النصارى إلى أقصى جنوب الأندلس، وهم يتابعون العبث والتخريب⁽¹⁾.

وظهر غرور ألفونسو الثامن ملك قشتالة واعتزازه بالنصرانية ولم يقتنع بالغنائم العظيمة التي رجع بها المطران مارتن إلى طليطلة، فكتب إلى سلطان الموحدین خطاباً يشابه كتاب ألفونسو السادس إلى يوسف بن تاشفين يدعوهُ إلى القتال. وهذا هو نص الخطاب كما ورد في وفيات الأعيان:

(باسمك اللهم فاطر السموات والأرض، وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح. أما بعد. . فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذي عقل لازب، أنك أمير الملة الحنيفية، كما أني أمير الملة النصرانية، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية، وإخلادهم إلى الراحة، وأنا أسومهم بحكم القهر وجلاء الديار، وأسبي الذراري، وأمثل بالرجال، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة، وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا، لا تستطيعون دفاعاً ولا تملكون امتناعاً، وقد حكى لي عنك أنك أخذت في الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال، وتماطل نفسك عاماً بعد عام، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فلا أدري أكان الجيش أبطاً بك أم التكذيب بما وعد ربك؟ ثم قيل لي إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلاً لعله لا يسوغ لك التقحم معها، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك وأعتذر لك وعنك، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستنكار من الرهان، وترسل إلي جملة من عبيدك بالمراكب والشواتي والطرائد والمسطحات، وأجوز بحمليتي إليك، وأقاتلك في أعز الأماكن لديك، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت إليك، وهدية عظيمة مثلت بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك، واستحقيت إمارة الملتين والحكم على

(1) انظر: تاريخ الأندلس ليوسف أشباخ (81/2).

البرين، والله تعالى يوفق للسعادة ويسهل الإرادة، لا رب غيره ولا خير إلا خيره إن شاء الله تعالى⁽¹⁾.

فلما وصل كتابه إلى الأمير أبي يوسف المنصور مزقه وكتب على ظهر قطعة منه:
﴿أَتَجْعَلُ إِلَهُهُمْ فَلَنَأْيِبَنَّهُمْ يَجُودَ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: 37].
الجواب ما ترى لا ما تسمع.

ولا كتب إلا المشرفية عنده ولا رسل إلا الخميس العرمم⁽²⁾

لقد اشتد غضب أبي يعقوب المنصور على ألفونسو الثامن وغطرسته، وأخذته
غيرة الإسلام، فبادر بالتأهب للجهاد في الأندلس، وأمر أن يذاع الخطاب في جنود
الموحدين ليثير غيرتهم، وضج الناس وصاحوا بشعارات الجهاد، وأمر السلطان
الموحدي بإخراج أخراق القبة الحمراء وسيفه الكبير إيذاناً بالدعوة العامة إلى الجهاد،
وأمر الجند الذين اجتمعوا من كل صوب بالسير إلى سبتة، وإلى غيرها من أمكنة
العبور إلى الأندلس.

ودوت صيحات الجهاد في جميع أنحاء المغرب، من مدينة سلا على المحيط
الأطلسي، حتى برقة شرقاً على حدود مصر، ضد النصارى الذين غدوا خطراً على
الإسلام. في الوقت نفسه الذي كانت أخبار انتصار صلاح الدين على الصليبيين في
حطين واستعادة مدينة القدس من أيدي الصليبيين قد وصلت إلى مسمع المغاربة
وأحيت قلوبهم وطهرت نفوسهم وتعلقوا بالشهادة في سبيل الله؛ بل نجد أن بعض
المغاربة فضل الذهاب إلى الشام والانضواء تحت لواء الناصر صلاح الدين الأيوبي.

لقد استجاب الرجال والشيوخ والشباب وسكان الصحارى والمدن والقرى
والهضاب والشواطئ والجبال في أنحاء المغرب الكبير إلى نداء الجهاد وانضموا إلى
ألوية الجهاد في إسبانية، وبدأ الخطر الداهم ينذر الغرب في الوقت الذي حاول
النصارى فيه أن يرفعوا الصليب في المشرق.

وبعد أن ستر أبو يوسف المنصور جميع قواته إلى الأندلس، عبر إلى الجزيرة
الخضراء في 20 رجب سنة 591هـ، ولم يسترح بها إلا قليلاً، ثم بادر بالسير إلى قشتالة

(1) وفيات الأعيان (6/7).

(2) وفيات الأعيان (7/7).

خشية من نفاذ المؤن، ولكي يكسب حماسة جنده وظمأهم للجهاد وحبهم للاستشهاد.

وكانت خطة زعيم الموحدين ترمي أولاً إلى اختراق قلب إسبانية وافتتاح طليطلة، ومتى ظفر ببيغته استطاع أن يحارب الممالك الأخرى بسرعة وسهولة، ولكنه لما علم بأن ملك قشتالة قد حشد قوات شمال قلعة رباح، على مقربة من قلعة الأراك، اتجه بجيشه إلى ذلك المكان. ولما وصل إلى قيد مسيرة يومين من جيش النصراري، ضرب معسكره في يوم الخميس الثالث من شعبان سنة 591هـ/1195م، وعقد مجلساً من القادة والأشياخ للبحث في الخطط التي يجب اتباعها لخوض المعركة⁽¹⁾.

ثالثاً: معركة الأرك:

(الأرك): حصن على بعد عشرين كيلومتراً إلى الشمال الغربي من قلعة رباح، على أحد فروع نهر وادي أنه، وهي نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس، في حينه تجهز ألفونسو الثامن ملك قشتالة للقاء الجيش الإسلامي منذ سمع بعبور الموحدين وطلب العون من ملكي ليون وونبارة⁽²⁾ واستفز كل ملوك إسبانيا المسيحية واستصرخ البابا في روما وقدمت إليه جيوش من فرنسا وألمانيا وهولندا وغيرها من الديار الأوربية ووافته جنود أوربية كبيرة يقودها فرسان ذو خبرة عسكرية طويلة وتجربة ماهرة وممتازة في الحروب ضد المسلمين، حتى لقد قدرت القوات الأوربية التي احتشدت في مواجهة القوات الإسلامية ب (150 ألف جندي) تزيد عن ثلاثة أضعاف القوات الإسلامية⁽³⁾. وتحركت تلك القوات ونزلت في الأرك، ونزل أبو يوسف يعقوب المنصور على مقربة من المعسكر القشتالي، ومرت عدة أيام لم يقع فيه اشتباك⁽⁴⁾.

خطة الموحدين:

اجتمع المجلس الحربي الاستشاري للموحدين برئاسة زعيمهم أبو يوسف يعقوب المنصور وتناقشوا في الخطة التي يجب اتباعها في المعركة، واستمع الزعيم

(1) انظر: الأرك، شوقي أبو خليل، ص 53، 54.

(2) المصدر السابق، ص 54.

(3) انظر: موسوعة المغرب العربي، ص 231.

(4) انظر: معركة الأرك، ص 55.

لرأي الجميع، ثم التفت إلى زعماء الأندلس، وطلب رأي أبي عبد الله بن صناديد، لقد كان من أعقلهم وأخبرهم بمكائد الحروب، وكان أبو يوسف المنصور يفضل آراء الأندلسيين في معرفة أفضل الخطة لمحاربة النصارى، إذ أنهم يخوضون الحرب مع جيرانهم بلا انقطاع، فهم لذلك أعرف الناس بطرق النصارى ومكائدهم، وكان من رأي ابن صناديد أنه يجب أن توضع خطة موحدة لتسيير دفة الحرب، إذ كان هذا التوحيد والنظام والتنسيق التام ينقص الموحدون في حروبهم السابقة، ولا سيما في معركة شنترين، وأنه يجب أن يختار أمير الموحدون قائداً عاماً للجيش كله، فوق اختيار المنصور على كبير وزرائه أبي يحيى بن أبي حفص، الذي امتاز بالفطنة وصفاء الذهن والشجاعة في كثير من الحروب والوقائع.

وكذلك يجب أن يتولى قيادة الأندلسيين زعمائهم، وهو ما لم يتبع دائماً، فكان يترتب على ذلك اضطراب الصفوف أثناء المواقع، وكانت حماسة الأندلسيين تهبط حينما يتولى الأجانب قيادتهم، على أنه مع ذلك كانوا يؤلفون قسماً مستقلاً من الجيش ينضوي تحت لواء القائد العام أبي يحيى بن أبي حفص، ولما كان الأندلسيون والموحدون أو الجند المغاربة النظاميون يؤلفون قوة الجيش الرئيسية، فقد نصح عبد الله بن صناديد بأن يتولى هؤلاء لقاء العدو ومواجهة هجومه الأول، وأما بقية الجيش وهي المؤلفة من قبائل البربر، ومعظمهم غير النظاميين، وجمهرة كبيرة من المحاربين والمجاهدين فيجب أن تكون قوة احتياطية للموحدون الأندلسيين، تقوم بالعون والإمداد. أما أبو يوسف المنصور فيستطيع بحرسه أن يرجح كفة الموقعة كلها، ويجب أن يربط بقوته وراء التلال على مسافة قريبة، ثم ينقض فجأة بجنوده المتوثبين على الأعداء المتبعين، ويبادر بحضوره إلى تدعيم النصر المكسوب، كل هذه الآراء أبداهها الزعيم الأندلسي، وأعجب أبو يوسف المنصور بها، فوافق عليها، وأمر بتنفيذها⁽¹⁾.

قلت: وهذه الخطة شبيهة بخطة المرابطين التي وضعوها في معركة الزلاقة عام 479هـ وهذا يدل على اهتمام أبي عبد الله بن صناديد بالدراسة التاريخية الواعية.

وفي تلك الأثناء كان ألفونسو يستعد لمهاجمة المسلمين ونتيجة للأعداد الضخمة التي في حوزته رأى أن يترك أساليب الإسبان القديمة في الحرب، وهي

(1) انظر: معركة الأرك، ص 56.

تقضي بتجنب الاشتباك في المواقع والامتناع في القلاع، حتى ترغم قوى المسلمين الجرارة على الانسحاب، إما لنفاد المؤن، أو لتفشي الأمراض، أو لحلول الشتاء، ولكن ألفونسو رأى - وهو سيد جيش ضخّم حسن الأهبة - أنه من العار أن ينسحب أمام العدو، خصوصاً وقد كان يؤمل أن يستطيع بقيادته أن يحرز نصراً باهراً على جيش الموحدين⁽¹⁾.

وفي 9 شعبان 591هـ/8 تموز (يولييه) 1195م كانت موقعة الأرك الفاصلة الحاسمة. وفي صباح هذا اليوم، أذاع أبو يوسف يعقوب المنصور بين سائر الجند، لكي يذكي حماسهم للقتال، خبر حلم رآه في الليلة السابقة، مفاده أنه رأى في نومه فارساً بهي الطلعة، على فرس أبيض يخرج من باب فتح في السماء، ويديه راية خضراء، وقد انتشرت في الآفاق، يقول له: إنه من ملائكة السماء السابعة، وإنه جاء يبشره بالنصر بحول الله.

ونظم أبو يوسف يعقوب المنصور جيشه، الذي قدرته الروايات الأوروبية الكنسية بستمائة ألف مقاتل وهذا بالطبع مبالغ فيه، فقد كان في الأغلب يساوي عدد جيش النصارى⁽²⁾، فاحتل الموحدون - أو القوات النظامية - القلب، واحتل الجناح الأيسر الجند العرب أو أحفاد فاتحي المغرب المسلمين، ومعهم زناتة وبعض القبائل الأخرى تحت ألويتهم الخاصة، واحتل الجناح الأيمن قوى الأندلس بقيادة عبد الله بن سنانيد. وتولى أبو يوسف المنصور قيادة القوة الاحتياطية مكونة من صفوة الجند والحرس الملكي، ورفعت صفوف المتطوعين ومعظمها مكون من الجنود الخفيفة، ولا سيما حملة النبال، تحت أعلامها الخضراء، وهو لون الموحدين، إلى المقدمة، لتفتتح القتال، وهم جميعاً يضطرمون شوقاً إلى الفوز بالشهادة في سبيل الله تعالى⁽³⁾.
وحين كمل الحشد قال القائد العام للجند إن المنصور أمير المؤمنين يقول لكم: «اغفروا له - فإن هذا موضع الغفران - وتغافروا فيما بينكم، وطيبوا نفوسكم وأخلصوا لله نياتكم»⁽⁴⁾.

(1) انظر: معركة الأرك، ص 57.

(2) انظر: معركة الأرك، ص 58.

(3) انظر: معركة الأرك، ص 58.

(4) صلاح الأمة في علو الهمة، د. سيد العفاني (6/240).

فبكى الناس وأعظموا ما ماسمعه من أميرهم المؤمن المخلص، وما جرى من حسن معاملتهم وعدله بينهم⁽¹⁾.

وقام وخطب وحرص على الجهاد وبين فضله ومكانته وقدره، وأخذ الناس مواقعهم وقد تنورت بصائرهم، وخلصت لله ضمائرهم وسرائرهم، وقويت أنفسهم وعزائمهم، وتضاعفت نجاتهم وإقدامهم⁽²⁾.

ونظم ملك قشتالة في تلك الأثناء جنده المتوثبة إلى القتال، وكانت قلعة الأرك تحمي موقعه من جانب، وتحميه من الجانب الآخر بعض التلال، ولا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة طرق ضيقة وعرة، وكان الجيش القشتالي يحتل موقعاً عالياً، وكانت هذه ميزة له في بدء القتال⁽³⁾.

ولما تقدمت صفوف المسلمين المهاجمة إلى سفح التل الذي يحتله ملك قشتالة، واندفعت إليه تحاول اقتحامه على إثر كلمات قائدها الملتهبة، انقض زهاء سبعة أو ثمانية آلاف من الفرسان القشتاليين والمثقلين بالدروع على المسلمين كالسيل الجارف المندفَع من عل⁽⁴⁾.

وفي البيان المغرب في معرض الحديث عن القشتاليين، لما رأوا الجيش الإسلامي في سهل الأرك، وهم في المرتفع المشرف عليه: «فهبطوا من مراكزهم كالليل الدامس والبحر الزاخر، أسراباً تتلوها أسراب، وأفواجاً تعقبها أفواج، ليس إلا الصهيل والضجيج والحديد على وقع العجيج، فدفَعوا حتى انتهوا إلى الأعلام، فتوقفت كالجبال الراسيات، فمالوا على الميسرة فتزحزح قوم من المطوعة وأخلاق من السوقة والأحرجة، فصعد غبارها إلى الجو، فقال أبو يوسف المنصور لخاصته ومن طاف به: «جددوا نياتكم وأحضروا قلوبكم» ثم تحرك وحده وترك ساقته على حالها وسار منفرداً من خاصته مقدماً بشهامته ونجدته، ومرّ على صفوف، وألقى إليهم بنفسه كلاماً وجيزاً في الهجوم على عدوهم والنفوذ إليه، وعاد إلى موضعه وساقته⁽⁵⁾»

(1) صلاح الأمة في علو الهمة.

(2) انظر: تاريخ الأندلس لعبد الرحمن الحجي، ص 486.

(3) انظر: معركة الأرك، ص 59.

(4) انظر: المصدر السابق نفسه.

(5) انظر: البيان المغرب، ص 194 - 195.

لقد رد المسلمون هجمات القشتاليين مرتين، ولكن العرب والبربر استنفذوا جميع قواهم لرد هذا الهجوم الشرس، ولما عززت صفوف النصارى بقوى جديدة، هجموا للمرة الثانية، وضاعفوا جهودهم واقتحموا صفوف المسلمين وفرقوها، وقتلوا قسماً منها، واضطر الباقون إلى التقهقر والتراجع، وأكرم الله الآلاف من المسلمين بالشهادة، منهم القائد العام أبو يحيى بن أبي حفص، الذي سقط شهيداً وهو يقاتل بمنتهى الشجاعة والرجولة والعزة والبسالة، وظن النصارى أنهم أحرزوا النصر بعد أن حطموا قلب جيش الموحدين، ولكن الجناح الأيمن للمسلمين بقيادة القائد الأندلسي أبي عبد الله بن صناديد انقض على النصارى انقضاض الأسد على فريسته وأصابوا قلب جيشه القشتالي إصابة دامغة، وكان ملك قشتالة يقود قلب جيشه بنفسه ويحيط به عشرة آلاف فارس، منهم فرسان الداوية وفرسان قلعة رباح، لقد استمرت المعركة وهي حامية الوطيس ساعات متتالية واستبدل المسلمون النقص في العدد بالإقدام والشجاعة، حتى أنه لما زحف زعيم الموحدين في حرسه وقواته الاحتياطية، ورد تقدم الفرسان القشتاليين واضطروهم إلى الفرار في غير انتظام، لم يغادرها ألفونسو وفرسانه عشرة الآلاف مكانهم في القلب، ذلك لأنهم أقسموا جميعاً بأن يموتوا ولا يتقهقروا، فاستمرت المعركة على اضطرامها المروع، والفريقان يقتتلان تحت سحب كثيفة من الغبار، وأرجاء المكان تدوي بوقع حوافر الخيل، وقرع الطبول، وأصوات الأبواق، وصلصلة السلاح، وصياح الجند، وأنين الجرحى⁽¹⁾.

وأيقن الموحدون بالنصر حينما انحصرت المقاومة في فلول من النصارى التفت حول ملك قشتالة. وهجم أمير الموحدين في مقدمة جيشه لكي يجهز على هذه البقية، أو يلجئها إلى الفرار، فنفذ إلى قلب الفرسان النصارى، والعلم الأبيض يخفق أمامه منقوشاً عليه: «لا إله إلا الله محمد رسول الله، لا غالب إلا الله». ولم يشأ ألفونسو بالرغم من اشتداد ضغط المسلمين عليه من كل صوب، ومواجهته لخطر الهلاك والسحق المحقق، أن ينقذ نفسه بالفرار، وأن يتحمل عار الهزيمة، وتساقط معظم الفرسان النصارى حول ملكهم مخلصين لعهدهم، ولكن بقية قليلة منهم استطاعت أن تنجو وأن تقتاد الملك بعيداً عن الميدان، وأن تنقذ بذلك حياته⁽²⁾.

(1) انظر: تاريخ الأندلس، لأشباح (86/2).

(2) انظر: الأرك، ص 61.

لقد انتهى يوم الأرك بهزيمة النصارى على نحو مروع، وسقط منهم في القتال ثلاثون ألف قتيل، بينهم زهرة الفروسية الإسبانية، وغنم المسلمون معسكر الإسبان بجميع ما فيه من المتاع والمال، واقتحموا عقب الموقعة حصن الأرك، وقلعة رباح المنيعتين⁽¹⁾.

وسرعان ما ارتفع نجم الموحدین الحربي في كل مكان بعد انتصارهم في موقعة الأرك، وأمر يوسف المنصور بإذاعة النبأ من منابر المساجد في جميع مملكته الشاسعة، وخصص خمس الغنائم بعد أن وزع باقيها على الجند لبناء مسجد ضخم في إشبيلية، اشتهرت منارته بارتفاعها البالغ مائتي متر⁽²⁾، كما بنى حصناً كبيراً في مراکش لتخليد ذكرى الموقعة.

وعامل أبو يوسف يعقوب المنصور الأسرى بالإحسان ومنحهم الحرية دون افتداء وكان عددهم عشرين ألفاً، وقد ساء وقع هذا الجود لدى الموحدین واعتبروه خطأ لكون ذلك العدد الهائل سيكون قوة عسكرية كبيرة ستشد أزر مملكة قشتالة فيما بعد وستسعى للانتقام من المسلمين⁽³⁾.

لقد رأى أبو يوسف المنصور أن ينتهز فرصة انهزام ملك قشتالة وتفرق النصارى، فقام في أوائل سنة 592هـ/1196م بغزوة جديدة في قلب الأراضي النصرانية واخترق ولاية (أستراما دورة) وعبر النهر الكبير (الوادي الكبير) في اتجاه نهر التاجة، وبعد أن فتح عدة حصون وقلاع، ظهر أمام أبواب طليطلة عاصمة قشتالة، فامتنع ألفونسو مع جيشه الصغير بعاصمته ولم يجرؤ أن يحارب المسلمين في ميدان مكشوف نظراً لهبوط معنويات جنده بعد الأرك، ولقلة عددهم، وحاصر أبو يوسف المنصور طليطلة عشرة أيام محاولاً اقتحام أسوارها المنيعة، لكنه لم ينجح، فعاد منسحباً جنوباً بسبب نقص التموين، بعد أن انتسفت الزروع بيد القشتاليين قبيل الأرك، فدب المرض في صفوف الموحدین، وكثر الموت بينهم، فاضطر أبو يوسف المنصور إلى الانسحاب بعد أن وصل إلى مقربة من ضفاف دويرة، الذي لم يقترب من ضفافه منذ

(1) انظر: روض القرطاس، ص 145.

(2) انظر: معركة الأرك، ص 63.

(3) المصدر السابق.

مدة طويلة أي جيش إسلامي، وكانت حملتهم هذه آخر حملة إسلامية تهيأ لاحتلال طليطلة⁽¹⁾.

واستطاع أبو يوسف يعقوب المنصور أن يفرق بين ممالك النصارى بعقد أحلاف معها، وساعده على ذلك موقعه القوي ولذلك استجاب لطلب ملك نافار وليون وعقد معها حلفاً واضطر ملك قشتالة إلى مقاومة هذه الأحلاف، فعقد في سنة 592هـ/1196م الهدنة مع الموحدين لكي يستطيع التغلب على أعدائه ورحب أبو يوسف المنصور بعقد هذه الهدنة؛ لأن ثورات جديدة قامت في إفريقية كانت تستدعي عودته إلى مراكش⁽²⁾.

ولما جاءت رسل ألفونسو المهزوم لمصالحة الموحدين قال الشاعر في مدح المنصور:

أهل بأن يسعى إليه ويرتجى ويزار من أقصى البلاد على الرجا
من قد غدا بالمكرمات مقلداً وموشحاً ومختماً ومتوجاً
عمرت مقامات الملوك بذكره وتعطرت منه الرياح تأرجاً⁽³⁾

رابعاً: نتائج معركة الأرك:

- 1 - ارتفعت الروح المعنوية لمسلمي الأندلس بعد أن نزل بهم الويل والهلاك والدمار من قبل النصارى الإسبان.
- 2 - سقوط هيبة ملوك النصارى أمام مسلمي الأندلس والمغرب والعالم الإسلامي كله.
- 3 - حقق الموحدون نصراً عظيماً جعلهم يفكرون بجد في توحيد العالم الإسلامي كله تحت سلطانهم.
- 4 - ارتفاع نجم السلطان أبي يوسف يعقوب المنصور والموحدين في العالم أجمع.

(1) انظر: تاريخ الإسلام، د. حسين إبراهيم حسن (4/215).

(2) انظر: معركة الأرك، ص 65.

(3) انظر: نفع الطيب (1/419).

- 5 - انصاعت بعض قبائل المغرب التي تفكر في الثورة على الموحيدين وكانت تنتظر فرصة الوثوب على دولتهم .
- 6 - عمت الأفراح أرجاء العالم الإسلامي في شرقه وغربه وأعتقت الرقاب ، وسر العلماء والفقهاء والأدباء وعامة المسلمين بهذا النبأ السعيد .
- 7 - أصيب نصارى الإسبان بهزيمة نفسية أثرت في نفوسهم وتحطمت آمالهم في الاستيلاء على أراضي المسلمين في الأندلس وإبعادهم .
- 8 - جعلت ملوك النصارى يتسارعون في عقد المعاهدات مع دولة الموحيدين وإيقاف الحروب والإذعان للشروط التي يضعها الموحدون .
- 9 - تفجرت أحقاد القساوسة والرهبان في نفوسهم ، فعملوا على توحيد الممالك وترتيب الأمور ورض الصفوف والدعوة إلى التنازل عن صراعات النصارى الداخلية .
- 10 - دخلت معركة الأرك سجل التاريخ الإسلامي المجيد وسجلت على صفحات الزمان بماء الذهب الصافي . وغير ذلك من النتائج .

خامساً: أسباب انتصار الموحيدين في معركة الأرك:

- لا شك أن النصر العظيم الذي حدث في معركة الأرك له أسباب عدة منها:
- 1 - الاهتمام بتصحيح العقيدة ومحاولة الرجوع إلى الفهم الصحيح والتصوير السليم وهذا ما قام به خليفة الموحيدين أبو يوسف يعقوب بن يوسف حيث أعلن براءته من الاعتقاد بعصمة ابن تومرت واستخف بمن بالغوا في تقديسه ، واهتم بالقرآن والسنة وشجع على الاهتمام بكتب الحديث المعتمدة وهذه محاولة جادة في إصلاح المنهج والاقتراب من منهج أهل السنة والجماعة .
- 2 - اهتمام دولة الموحيدين بالمرضى والضعفاء والأيتام والفقراء وكان السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور يشرف بنفسه على هذه الأعمال لعلمه أن طريق النصر والتمكين من أسبابه الواضحة الاهتمام بالضعفاء .
- 3 - محاربة المنكر والتضييق على الفساق وتغليظ العقوبة على أهل الكبائر بإشراف السلطان بنفسه ونشر العدل بين الرعية والسعي لتنفيذ أحكام الشرع ولو على نفسه وأهله وأقاربه وحارب الظلم وعاقب العمال الذين تشكو الرعايا منهم وكان يشدد في إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس .

4 - فتح باب الاجتهاد وحارب الجمود وألغى اهتمام الدولة بفروع الفقه وألزم العلماء بأن لا يفتوا إلا بالكتاب العزيز والسنة النبوية، ولا يقلدوا أحداً من الأئمة المجتهدين المتقدمين⁽¹⁾، بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباط القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس وبذلك فتح باب الاجتهاد لمن اجتمعت فيه شروطه. وأبطل التقليد⁽²⁾ ومن هؤلاء العلماء الذين مشوا على هذه الطريقة: أبو الخطاب بن دحية وأخوه أبو عمر وغيرهم⁽³⁾.

5 - احترام العلماء والقضاة والفقهاء في زمن أبي يوسف يعقوب بن يوسف وهذه قصة رائعة تدل على احترام أبي يوسف يعقوب المنصور للقضاة ووقوفه عند الشرع، روى ابن خلكان: أن الأمير الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر والد الأمير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد صاحب إفريقية، كان قد تزوج أخت الأمير أبي يوسف المنصور، وأقامت عنده، ثم جرت بينهما منافرة فجاءت إلى بيت أخيها، فسير الأمير عبد الواحد لطلبها فامتنعت عليه، وشكا الأمير عبد الواحد ذلك إلى قاضي الجماعة بمراكش، وهو القاضي أبو عبد الله بن علي بن مروان، فاجتمع القاضي المذكور بأبي يوسف المنصور وقال له: إن الشيخ أبا محمد عبد الواحد يطلب أهله، فسكت الأمير أبو يوسف المنصور. ومضت بعد ذلك أيام. ثم إن الشيخ عبد الواحد اجتمع بالقاضي المذكور في قصر الأمير بمراكش، وقال له: أنت قاضي المسلمين، وقد طلبت أهلي فما جاءوني، فاجتمع القاضي بأبي يوسف المنصور وقال له: يا أمير المؤمنين، الشيخ عبد الواحد قد طلب أهله مرة وهذه الثانية، فسكت الأمير يعقوب. ثم بعد ذلك بمدة لقي الشيخ عبد الواحد القاضي بالقصر المذكور وقد جاء إلى خدمة الأمير أبي يوسف المنصور فقال له: يا قاضي المسلمين، قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة، أنا أطلب أهلي وقد منعوني عنهم. فاجتمع القاضي بالأمير، وقال له: يا مولانا إن الشيخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لأهله، فإما أن تسير إليه أهله وإلا فاعزلني عن القضاء. فسكت الأمير يعقوب أبو يوسف المنصور، ثم قال: يا أبا عبد الله

(1) كان الأولى أن يفتح باب الاجتهاد لمن توفرت فيه شروطه وترك من أراد أن يقتدي في فتاويه بالأئمة الأعلام من أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والزهري والأوزاعي رحمهم الله.

(2) انظر: الأعلام للزركلي (8/ 203).

(3) انظر: معركة الأرك، ص 71.

ما هذا إلا جد كبير، ثم استدعى خادماً وقال له في السر: تحمل أهل الشيخ عبد الواحد إليه، فحملت إليه في ذلك النهار ولم يتغير على القاضي ولا قال له شيئاً يكرهه، لقد تبع في ذلك حكم الشرع المطهر وانقاد لأوامره، وهذه حسنة تعد له، وللقاضي أيضاً، فإنه بالغ في إقامة منار العدل⁽¹⁾.

6 - الحزم والقيادة الرشيدة التي تميز بها أبو يوسف المنصور في قيادته لدولة الموحدين حيث استطاع أن يوحد البيت المغربي الداخلي والقضاء على ثورات الأعراب وبني غانية والمتمردين وقاد المعارك بنفسه وأسند المهام الكبرى لأصحاب خبرة وحكمة ودراية وتجربة واسعة.

7 - الاهتمام بمبدأ الشورى والابتعاد عن التسلط والإعجاب بالرأي وتهميش الآخرين ولذلك استمع أبو يوسف إلى الآراء في مجلس حربه وأعطى لأهل الاختصاص مكانة معنوية واستمع لزعيم الأندلسيين واستفاد من خبرته الطويلة في محاربة النصارى واعتمد خطة أبي عبد الله بن صناديد ذات الأبعاد المتعددة.

8 - الاهتمام بمعرفة نفسية الأقسام المشاركة في الجهاد فمثلاً، الأندلسيون يفضلون أن يكون زعيمهم منهم وترتفع معنوياتهم وتنشط همهم ويندفعون كالأسود عندما يكون قائدهم منهم ويحدث العكس عندما يكون قائدهم من غيرهم، ولذلك جعل المنصور قيادة الأندلسيين لزعيمهم العظيم أبي عبد الله بن صناديد.

9 - جودة التخطيط، وظهر ذلك في حشد الألوف من المجاهدين وتوفير العدة والعتاد وتقسيم المواقع وإحكام الخطة في المعركة الفاصلة.

10 - الاهتمام بتوحيد القيادة في المعارك الفاصلة ولذلك عين أبو يوسف المنصور أبا يحيى بن أبي حفص قائداً أعلى لجيوش الموحدين لما تميز به من حنكة وشجاعة ومهارة في القتال.

11 - إذكاء روح الجهاد في الجنود وكان من عادة الموحدين من زمن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن قبل الحرب أن يذكرروا المجاهدين بأحاديث الجهاد، ولقد أمر السلطان أبو يعقوب العلماء بأن يجمعوا أحاديث الجهاد لتملى على الموحدين من أجل دراستها وحفظها وأصبح ذلك الفعل سنة في دولة الموحدين.

(1) انظر: وفيات الأعيان (10/7، 11).

12 - تواضع القيادة، ويظهر ذلك عندما طلب الأمير أبو يوسف المنصور من رعيته أن يغفروا له وأن يتغافروا فيما بينهم، فتأثر الناس وبكوا مما سمعوا من زعيمهم.

13 - سريان روح الأمل والتفاؤل بالرؤى، ويظهر ذلك عندما أخبر أبو يوسف المنصور جيشه بما رأى من نزول فارس بهي الطلعة، على فرس أبيض من باب فتح من السماء ويده راية خضراء وقد انتشرت في الآفاق يقول له: إنه من ملائكة السماء السابعة، وإنه جاء ليشره بالنصر بحول الله وقوته.

وغير ذلك من الأسباب التي ظهرت من خلال دراسة عصر أبي يوسف يعقوب المنصور.

سادساً: السفارة بين السلطان صلاح الدين الأيوبي وأبي يوسف يعقوب المنصور:

توجت الأعمال العظيمة التي قام بها عماد الدين زنكي ومن بعده نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بتوحيد الشام مع مصر وتولى القيادة بعد نور الدين صلاح الدين الأيوبي فاستمر صلاح الدين في دفع حركة الجهاد، وأخذ يستولي على مواقع الصليبيين حتى استولى على بيت المقدس سنة 583هـ، فتأهب الصليبيون لحرب صلاح الدين وتتابعت أساطيلهم على الإسكندرية. لذلك فكر صلاح الدين في طلب النجدة من يعقوب المنصور الموحي وأرسل إليه هدية تشتمل على مصحفين ومائة درهم من دهن البلسان، وعشرين رطلاً من العود، وستمائة مثقال من المسك والعنبر، وخمسين قوساً عربية بأوتارها، وعشرين من النصول الهندية وعدة سروج موشاة⁽¹⁾.

وقد بعث صلاح الدين مع هذه الهدية كتاباً رقيقاً⁽²⁾ جاء فيه:

«الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنفية من استعمر الأرض، وأغنى من أهلها من سألها الفرض، وأجرى على يده النافلة والفرض، وزين سماء الذراري التي بعضها من بعض» وكان عنوان الكتاب: من صلاح الدين إلى أمير المسلمين، وفي أوله: «الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب». ويذكر السلاوي أن يعقوب المنصور لم

(1) انظر: تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم حسن (4/216).

(2) الاستقصا للسلاوي (2/163).

يعجبه أن يخاطبه صلاح الدين بلقب أمير المسلمين لا أمير المؤمنين، وأن يعقوب أسرها في نفسه، ولكنه أكرم وفادة رسول صلاح الدين دون أن يحقق له غرضاً. وقد قيل: إن يعقوب المنصور جهز مع ذلك مائة وثمانين سفينة، وحال دون استيلاء الصليبيين على سواحل الشام، وقد دلل ابن خلدون⁽¹⁾ بذلك على تفوق ملوك المغرب على ملوك المشرق في إنشاء الأساطيل الجهادية⁽²⁾.

ولا يبعد أن يكون استنجد صلاح الدين بيعقوب المنصور الموحي راجعاً إلى حاجة الأسطول المصري إلى بعض قطع من الأسطول الموحي لدفع خطر الصليبيين الذين كانوا يغيرون على بلاد الشام بحراً، إذ عني المغاربة في عهد الموحيين خاصة ببناء الأساطيل البحرية لاجتياز البحر إلى عدوة الأندلس وليكونوا دائماً على أهبة الاستعداد لحرب نصارى الأندلس الذين كانوا يتطلعون إلى استرداد أملاكهم من أيدي المسلمين بسبب الحروب المتصلة التي كانت تدور بين المغاربة ونصارى الأندلس. على أن ما ذكره بعض المؤرخين من أن يعقوب المنصور الموحي لم يقابل كتاب صلاح الدين بالارتياح؛ لأنه لم يلقيه بلقب أمير المؤمنين لا ينهض دليلاً على عدم استجابة يعقوب المنصور لنداء صلاح الدين، وإنما كان ذلك راجعاً إلى أن يعقوب المنصور كان دائماً على أهبة الاستعداد لحرب نصارى في الأندلس⁽³⁾ وذكر بعض المؤرخين سبباً آخر منع أبو يوسف المنصور من دعم صلاح الدين وذلك لأن توسع صلاح الدين في غرب مصر، بحروب قام بها بعض أتباعه وخصوصاً قراقوش التقوي الذي حالف بعض أعداء الموحيين كعرب بني هلال، وابن غانية الذي كان يدعو إلى المرابطين، وهذا سبب وجيه⁽⁴⁾.

ويبدو أن ظهور دولة صلاح الدين الأيوبي على أنقاض الدولة العبيدية الرفضية في مصر ساءهم؛ لأن ذلك ترتب عليه ظهور شعار العباسيين من جديد في تلك الديار؛ ولأن الموحيين لم يعترفوا بخلافة العباسيين، وكانوا يرون أن دار الخلافة الشرعية هي مدينة مراکش لا بغداد، وكانت طموحات خلفاء الموحيين ظاهرة من

(1) انظر: العبر (6/490).

(2) انظر: تاريخ الإسلام (4/216).

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) انظر: معركة الأرك، ص 70.

أجل توحيد العالم الإسلامي تحت لوائهم ولا سيما في عهد الخليفة يعقوب المنصور الذي ينسب إليه صاحب المعجب تصريحات تدل على رغبته في الرحلة إلى المشرق وتطهيره من عيوبه⁽¹⁾.

وقد أشار الذهبي إلى تصريح السلطان أبي يوسف المنصور برغبته من قصد مصر⁽²⁾.

وقد عبر عن هذه الرغبة بوضوح شاعر الموحدين أبو العباس ابن عبد السلام الجراوي في بعض أشعاره كقوله في مدح الخليفة الموحدي يعقوب المنصور:

إن الخلافة نالت من محاسنكم أوفى الحظوظ فأبدت منظراً عجبا
أعلى المراتب من بعد النبوة قد حبا بها الله أعلى الخلق وانتخبا
سبئظم السعد مصرأ في ممالكه حتى يدوخ منها خيله حلبا
إلى العراق إلى أقصى الحجاز إلى أقصى خراسان يتلو جيشه الرعبا
هو الذي كانت الدنيا تؤمله وكل عصر له ما زال مرتقبا⁽³⁾

لا شك أن الموحدين كانوا يخططون لغزو بلاد المشرق الإسلامي، وأن أولى الخطوات المستهدفة هي البلاد المصرية، لقد صرح سلطان الموحدين المنصور برغبته في غزو البلاد المصرية وذكر ما فيها من المناكر والبدع، وقال: نحن إن شاء الله مطهروها، ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات رحمته الله⁽⁴⁾.

إذن فقد كان الموحدون يخططون لغزو المشرق كله. ولا شك أن أمراء الدولة النورية والأيوبية يعلمون بهذا. ولذلك أرادوا أن يأخذوا زمام المبادرة في أيديهم. فقام الأيوبيون بتكليف بعض كبار شخصياتهم بالتوجه إلى بلاد المغرب وإيجاد مراكز نفوذ لهم بها. وذلك حتى تكون هذه المراكز خط الدفاع الأول لإمارات المشرق في وجه الأطماع الموحدية، وكانت غزوة قراقوش على المغرب هي إحدى هذه الخطوات التي بادر الأيوبيون باتخاذها⁽⁵⁾.

(1) انظر: دراسات في تاريخ المغرب، ص 114.

(2) انظر: سير أعلام النبلاء (315/21).

(3) انظر: دراسات في تاريخ المغرب للعبادي، ص 115.

(4) انظر: سقوط دولة الموحدين، ص 198.

(5) المصدر السابق نفسه.

لقد تحركت الحملات الأيوبية نحو المغرب واتخذت الطريق الصحراوي، لقصره أولاً ثم لقلعة الأخطار التي يمكن أن يتعرضوا لها ولذلك تركوا الطريق الساحلي الذي كان مليئاً بقبائل بني سليم وبني هلال الذين استطاعوا أن يخضعوا شرق ليبيا لسيادتهم ونعموا فيها برغد العيش ورفاهته، ولذلك عملوا على التمسك بهذه البلاد ومقاتلة كل من يحاول النزول فيها أو الاستيلاء عليها منهم⁽¹⁾.

وقد رفض المنصور إرسال النجدة لدوافع نفسية، وحزازات سياسية، وموقف داخلي متوتر، وخارجي متربص، ولقد أكرم سلطان الموحدین سفير صلاح الدين وبالغ في إكرامه ولما مدحه سفير صلاح الدين ابن منقذ في قصيدة عدتها أربعون بيتاً أعطاه بكل بيت ألفاً.

ومن القصيدة:

سأشكر بحراً إذا عباب قطعته	إلى بحر جود ما لأخراه ساحلُ
إلى معدن التقوى إلى كعبة الندى	إلى سمت بالذكر منه الأوائل
إليك أمير المؤمنين ولم تزل	إلى بابك المأمول ترجى الرواحل
قطعت إليك البر والبحر موقناً	بأن نذاك الغمر بالنجح كافل
وحزت بقصيدك العلا فبلغتها	وأدنى عطياك العدد والفواضل
فلا زلت للعلياء والجود بانياً	تبلغك الآمال ما أنت آمل ⁽²⁾

إن صلاح الدين الأيوبي لم يعترف بخلافة السلطان الموحي ولم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين في الخطاب الذي أرسله إليه مع رسوله ابن منقذ، وهذه مسألة لها أهمية خاصة على أساس أن الاعتراف بالخلافة الموحدية وبشرعية الدولة الموحدية القائمة في العلن على تعاليم ابن تومرت المنحرفة وهذا ما بينه القاضي الفاضل مستشار صلاح الدين الأكبر عندما قال: «... بأن الخطاب يكفي، وطريق جحدنا له ممكن، والكتابة حجة تقيد اللسان عن الإنكار، ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب جعلنا خالعين في مكان الإجماع، مبايعين من لا ينصره الله ولا شوكة فيه، ولا يحل اتباعه،

(1) سقوط الموحدین، ص 198.

(2) انظر: معركة الأرك، ص 74.

مرخصين الغالي، منحطين عن العالي شاقين عصا المسلمين، مفرقين كلمة المؤمنين مطيعين لمن لا تحل طاعته، متقلدين لمن لا تصح ولايته»⁽¹⁾.

لو التقى صلاح الدين مع السلطان يعقوب المنصور في غرفة مباحثات مغلقة لوصلوا إلى أمور تنفع الأمة كلها نظراً لما تميز به صلاح الدين من مرونة سياسية منقطعة النظير، ولما وصل إليه السلطان المنصور من حرصه على إصلاح عقائد الموحدين والاقتراب من منهج أهل السنة والجماعة ولكن الله غالب على أمره.

ومهما يكن من شيء فإن هذا الخلاف السياسي والعقدي الذي وقع بين عاهل المشرق والمغرب، لم يحل دون تعاون شعوبهما في السراء والضراء كما هو الحال في كل زمان ومكان، فمن المعروف من كتب التراجم المختلفة أن عدداً كبيراً من المغاربة قد ساهموا في الحروب الصليبية إلى جانب إخوانهم المشاركة، واستشهد منهم عدد كبير دفن في فلسطين⁽²⁾.

ويشير الرحالة ابن جبير وكان معاصراً لزمن صلاح الدين إلى الضريبة الإضافية التي فرضها الإفرنج في الشام على تجار المغاربة دوناً عن سائر تجار المسلمين «لأن طائفة من أنجاد المغاربة غزت مع السلطان نور الدين محمود زنكي أحد الحصون فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهار، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافهم على بلادهم...» ثم يشير ابن جبير في مكان آخر من كتابه إلى اهتمام الملوك وأهل اليسار والخواتين من النساء في الشرق العربي بفضاء الأسرى من المغاربة: «فكل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها إنما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم»⁽³⁾.

سابعاً: وفاة السلطان وبعض أعماله وأخلاقه:

لقد كان عصر أبي يوسف يعقوب المنصور من أفضل عصور دولة الموحدين ولقد اهتم بالبناء والعمارة، فسعى لإكمال مدينة الرباط التي رسم حدودها وبدأ بناءها

(1) دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، عز الدين عمر أحمد موسى، ص 39. وانظر:

دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص 117، للعبادي.

(2) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص 118.

(3) راجع رحلة ابن جبير، ص 274، 280 نقلاً عن دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص 119.

والده، وبنى بها مسجداً عظيماً متسع الفناء له مئذنة شامخة على هيئة منارة الإسكندرية، ويصعد إليها بغير درج، وتسمى الآن منارة حسان.

كان عبد المؤمن بن علي قد هدم سور مدينة فاس في أثناء حروبه مع المرابطين، فأقام حفيده يعقوب المنصور هذا السور. ومما ساعد على إقامة هذه المنشآت هذه الأموال الضخمة التي تدفقت على دولته⁽¹⁾.

وقد أحاط المؤرخون موت يعقوب المنصور ببعض القصص التي هي أقرب إلى الخيال. فقال بعض: إنه بايع ابنه الناصر بعد عودته من وقعة الأرك، ثم زهد في الدنيا وساح في الأرض حتى وافته منيته. وقال بعض آخر: إنه ذهب للحج وعاد منه زاهداً فمات في الطريق ودفن في الشام⁽²⁾.

ولم يذكر أحد من المؤرخين أنه مات بالمغرب سوى عبد الواحد المراكشي، فقد ذكر أن يعقوب المنصور كان يتوق إلى فتح مصر وأن ذلك لم يزل عزمه حتى مات في مستهل سنة 595هـ ودفن بتينملل مع آبائه، ويبدو ما ذكره المراكشي أقرب هذه الروايات إلى الصواب⁽³⁾.

يروى ابن أبي زرع أن المنصور لما أشرف على الموت قال: ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي إلا على ثلاث وددت أني لم أفعلها:

الأولى: إدخال البدو - العربان - من إفريقية إلى المغرب، مع أني أعلم أنهم أهل فساد.

والثانية: بناء «رباط الفتح»، أنفقت فيه بيت المال وهو بعد لا يعمر.

والثالثة: إطلاق أسارى الأرك، ولا بد لهم أن يطلبوا بثأرهم.

وصدقت فراسة يوسف المنصور في الأولى والثانية، وكتب لرباط الفتح أن يعمر، ولكن بعد قرون من وفاته، حيث غصت هذه المدينة بالأسر المهاجرة من الأندلس⁽⁴⁾.

لقد توفي هذا السلطان المجاهد الذي أصلح ما استطاع من عقائد الموحدين عام 595هـ⁽⁵⁾ فرحمة الله عليه ومغفرته ورضوانه.

(4) انظر: سير أعلام النبلاء (319/21).

(5) انظر: موسوعة المغرب العربي (236/3).

(1) راجع رحلة ابن جبير.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) انظر: معركة الأرك، ص 76.

المبحث الرابع

الخلافة الموحدية

أبو محمد عبد الله الناصر

توفي الخليفة الموحدية يعقوب المنصور عام 595هـ/1199م وقد أثارت وفاته حزناً عميقاً في الأوساط الإسلامية المغربية ذلك لأن كثيراً من الناس كذبوا وفاته وقال البعض: إنه قد تخلى عن الملك وذهب خفية إلى الأندلس حيث يربط في ثغورنا لجهاد الكفار، وقال البعض الآخر: بل إنه توجه إلى البيت الحرام وجاور في المدينة عند قبر الرسول ﷺ حيث يخفي أمره، وقال فريق ثالث: بل إنه رحل إلى الأراضي المقدسة بفلسطين لجهاد الصليبيين هناك. وقد كذب المؤرخون هذه الروايات وكما علمنا فإنه قد مات في المغرب ودفن بجوار آبائه في تينملل⁽¹⁾. إلا أنه في الوقت نفسه حركت وفاته أطماع الطامعين من خصوم دولة الموحدين من جديد، وخلفه أبو محمد عبد الله الملقب بالناصر وكان عمره يوم ارتقاء عرش سلطنة المغرب والأندلس ثمانية عشر عاماً، حيث إنه ولد في عام 576هـ/1180م.

وتولى الحكم عام 595هـ/1199م وقد كان شاباً طموحاً معتزاً بنفسه وبرأيه قليل الذكاء ولا يحترم أصحاب الخبرات الواسعة من رجالات دولة الموحدين، واستبد بالأمور ورفض النصائح من أقرب المقربين من رجاله، وكان والده قد أطلعه على سير الأمور في البلاد وأمره بأن لا يقطع برأي حاسم يهيم البلاد دون مشاورة أبي حفص محمد أبي حفص إلا أن أبا محمد عبد الله الناصر استبد بالأمر⁽²⁾.

أولاً: ثورة بني غانية:

شغل محمد الناصر عند استلامه حكم الموحدين بثورة آل غانية التي نشطت من جديد والتي تمكنت من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيها

(1) انظر: موسوعة المغرب العربي (3/236).

(2) المصدر السابق.

للخليفة العباسي جرياً على عادة أسلافهم المرابطين، واستطاع عبد الله بن غانية أن ينظم فلول المرابطين ويجعلهم شوكة في حلق الموحدين، لقد كانت أسرة بني غانية لها نفوذ من زمن المرابطين، واستعمل السلطان المرابطي علي بن يوسف رجلين منهما في الأندلس وهما محمد ويحيى، وكان يحيى وهو الأكبر من أخيه محمد، حسنة من حسنات الدهر، اجتمع له من المناقب ما افترق في كثير من الناس، منها أنه كان رجلاً صالحاً شديد الخوف من الله ﷻ والتعظيم له والاحترام للصالحين، هذا مع علو قدم في الفقه، واتساع في رواية الحديث، وكان مع هذا شجاعاً فارساً إذا ركب عُذَّ وحده بخمسمائة فارس. وكان علي بن يوسف بن تاشفين الملقب بـ"المشمي" يعده للعظام ويستدفع به المهمات، وأصلح الله على يديه كثيراً من جزيرة الأندلس، ودفع به عن المسلمين غير مرة مكاره كانت قد نزلت بهم، منها إنقاذ جزيرة فراغة في شمال شرق الأندلس عام 529هـ من ألفونسو ملك أراغون، بعدما احتل هذا سرقسطة وطليطلة وقلعة أيوب.

ولى علي بن يوسف بن تاشفين يحيى بن غانية مدينة بلنسية، ثم عزله عنها ليوليه قرطبة، فلم يزل بها والياً إلى أن مات، وبموته كانت أولى الفتن على المرابطين، فبدأ أخوه محمد بن غانية يجول الأندلس والفتنة تتزايد، ودعوة الموحدين تنتشر، ولما اشتد خوف محمد بن غانية، وصل دانية وعبر عنها إلى جزيرة البليار (منورقة ويااسة مع ميورقة).

ضبط محمد إمارة جزيرة البليار تحت سلطة المرابطين، داعياً للخلافة العباسية. وبعد محمد ملك ابنه إسحاق، فأتمه بقايا المرابطين، فأحسن إليهم وأكرمهم حسب طاقته.

وأقبل إسحاق بن محمد على الجهاد في سبيل الله وسجل صفحات عطرة خالدة في جهاده الميمون، وكان في كل عام يغزو مرتين بلاد الروم - غرب إيطاليا وجنوب فرنسا - فيغنم وينكس في الأعداء أشد نكاية، واشتد بذلك عوده وقوي أمره، وتشبه بالسلطين العظام ولم تزل هذه سيرته إلى أن توفي عام 579هـ.

وكان إسحاق هذا له سياسة مرنة مع الموحدين، فلاطفهم وأرسل لهم الهدايا الثمينة وهادنهم وأشغلهم عنه، ولم يلتفت الموحدون إلى جزر البليار باهتمام يذكر، فلما كان سنة 578هـ كتبوا إليه إلى الدخول في طاعتهم والدعاء لهم على المنابر ويتوعدونه إن لم يلب مرادهم، فأعطاهم العهود المؤجلة، واستشار وجوه أصحابه،

فاختلفوا عليه، فمنهم من أشار بعدم طاعة الموحدين والامتناع عنهم بجزر البليار، ومنهم من رأى أن الدخول أسلم لحماية الأنفس والأعراض، وخرج ذلك المجاهد الكبير في غزوة من غزواته، فأكرمه الله بالشهادة، فتولى الأمر من بعده ولده الأكبر علي بعهد من والده، والذي دخل في حرب مع الموحدين طويلة المدى، واستطاع الخليفة الموحدى المنصور أن يكسر شوكته وجرد الجيوش لحربه وقادها بنفسه واستطاع أن يخمد ثورة بني غانية في المغرب الأوسط وإفريقية وطرابلس بحد السنان ومزق تحالف بني غانية مع قبائل بني سليم وبني هلال وأمراء الأيوبيين⁽¹⁾.

ومع وفاة الخليفة الموحدى المنصور عاد بنو غانية الميورقيون إلى شن غاراتهم على إفريقية، وتمكنوا من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيها للخليفة العباسى جرياً على عادة أسلافهم المرابطين، وكان عبد الله بن غانية قد حاول في عام 596هـ/1200م أن يسترد جزيرة يابسة من الموحدين إلا أنه فشل في تحقيق ذلك الهدف.

ورأى الخليف الموحدى الجديد أبو عبد الله محمد الناصر لدين الله ابن المنصور أن استقرار نفوذ الموحدين في إفريقية لن يستتب إلا إذا استولى على جزر البليار قاعدة بني غانية، ومصدر المتاعب التي يواجهها الموحدون في إفريقية؛ لهذا صمم الناصر على بسط نفوذه في تلك الجزر مصدر القلق المستمر للموحدين وشرع أبو محمد الناصر بتوجيه حملة بحرية كبرى إلى الجزائر الشرقية كان قد أعدها لهذا الغرض في ثغر دانية وأسند قيادة الأسطول إلى عمه أبي العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن كما أسند قيادة الجيش إلى شيخ الموحدين أبي سعيد عثمان بن حفص.

كانت الحملة تتكون من ألفين ومائتي فارس وسبعمائة من الرماة وخمسة عشر ألف من الرجال، وغير رجال الأسطول وكان الأسطول في ثلاثمائة جفن (سفينة) (أو أنواع السفن) وأقلعوا يوم السبت 24 ذي حجة 599هـ/1203م من جزيرة يابسة قاصدين ميورقة ونزلوا فيها وأحاطوا بها، وخرج إليهم عبد الله بن غانية لكنه هزم وقتل، وتغلب رجال الأسطول والجيش على المدينة ودخل أبو العلاء إدريس قائد الأسطول والشيخ أبو سعيد عثمان قائد الجيش، ثم تحرك الأسطول إلى جزيرة منورقة فدخل البلد عنوة وأرسل حاكمها إلى العاصمة مراکش، وبذلك تم للموحدين احتلال الجزر

(1) انظر: العقاب، شوقي أبو خليل، ص 15، 16.

الشرقية أو جزر البليار وتم لهم ذلك سنة 600هـ/1203م وأقيم عليها عبد الله ابن طاع الله الكومي والياً عليها، وبذلك يكون الموحدون قد قطعوا جذور بني غانية في الجزر الشرقية (جزر البليار وهي ميورقة ومنورقة ويابسة).

وبقي عليهم أن يقطعوا فروعهم في إفريقية والمغرب الأوسط، فتحرك إليهم الناصر بجيشه وأسطوله عام 601هـ/1204م واستولى على تونس والمهدية وفر يحيى بن غانية بأهله وولده إلى صحراء ليبيا، وأقام الناصر الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي جد ملوك الحفصيين والياً على إفريقية وأعطاه مطلق التصرف في إدارتها.

واستطاع الوالي الموحدي الجديد أن يقضي على مقاومة الأعراب وبني غانية وأحلافهم في إفريقية، ونستطيع أن نقول: إن عام 604هـ الذي كانت فيه موقعة الزاب النهائية الحقيقية لنشاط بني غانية في إفريقية، لقد تعقب أبو محمد الحفصي جيوش يحيى بن غانية حتى أنهكها وشتت جموعها وأحلافها وفي عام 631هـ / 633هـ أو 1334م/1236م توفي يحيى بن إسحاق بن غانية في مدينة مليانة على نهر شلف في الجزائر وكانت هذه نهاية ثوار المرابطين الذين قضوا حياتهم في معارك طاحنة مع الموحدين. وقد أضعفت هذه الحركة قوات الموحدين نحو نصف قرن من الزمان⁽¹⁾.

لقد كان الدافع العقدي لثورة بني غانية واضح المعالم؛ لأنهم رأوا في الموحدين دولة منحرفة عن أصول منهج أهل السنة والجماعة؛ ولأنهم حرصوا على وحدة الأمة تحت لواء الدولة العباسية، ولذلك سعى بنو غانية إلى تأسيس دولة سنية على نهج دولة المرابطين التي كسبت سمعة طيبة عطرة بسبب إخلاصها وصدقها للإسلام الصحيح، وهذا يفسر لنا وقوف أهالي المغرب الأوسط وإفريقية لمدة تزيد على أربعة عقود مع ثورة بني غانية.

لقد كان فشل تلك المحاولة الجادة التي قام بها بنو غانية بسبب الضربات الموحدية القوية والمركزة، وبسبب ضعف الخلافة العباسية التي لم تستطع أن تمد بني غانية بالعدة والسلاح والرجال في حربهم الطويلة مع دولة الموحدين، وبسبب انشغال الأيوبيين بمشاكلهم الداخلية بعد فاة صلاح الدين وبحروبهم مع الحملات الصليبية الحاقدة.

(1) انظر: موسوعة المغرب العربي (3/ 236 - 240).

ثانياً: جهاد الناصر لدين الله في الأندلس:

لقد كانت معركة الأرك من المعارك الخالدة في تاريخنا المجيد، ولقد تركت آثاراً عميقة في نفوس النصارى وخصوصاً ألفونس الثامن ملك قشتالة الذي لم يستطع أن ينسى مرارة الهزيمة، فشرع يحصن قلاع بلاده الواقعة على الحدود الإسلامية تحصيناً قوياً عام 1209م ثم نقض القشتاليون الهدنة القائمة بينهم وبين الموحدين، لذا لم يكن الخليفة الناصر لدين الله يخمد ثورات المغرب حتى سمع باستعداد ألفونسو في الأندلس الذي سعى في توثيق عهوده مع ملكي نافار وأراغون، وحصل منهما على وعد بتأييده وإمداده بالجند حين الخطر لمحاربة المسلمين واعتزم بعد ذلك محو ورسمة هزيمة الأرك، بإحراز نصر على الموحدين⁽¹⁾.

لقد تغيرت الأوضاع السياسية في الأندلس في ذلك الوقت، واستطاع الإسبان النصارى أن يوحدوا جبهتهم الداخلية، وأن يدعو نصارى أوروبا لحرب صليبية باركها البابا أنوسنت الثالث، فحركت تلك الدعوة الحاقدة جموع النصارى في أوروبا وتوافدوا بجيوش جرارة من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا لمناصرة الصليب في الأندلس⁽²⁾.

وشرع النصارى الحاقدون في إحراق الزروع والحقول، ونهب القرى وقتل السكان وسبوا منهم جموعاً كبيرة.

وأمام هذه الاعتداءات الهمجية المتكررة على الأندلس، أعلن الناصر لدين الله لجهاد، فحشد قوات كبيرة وشرع في إرسالها من المغرب، وقسمها إلى خمسة جيوش:

1 - الجيش الأول من قبائل البربر.

2 - والثاني من الجنود المغاربة.

2 - والثالث من الجنود الموحدية النظامية.

4 - والرابع من المتطوعة من جميع أنحاء المملكة.

5 - والخامس هو جند الأندلس.

وقدر جيش أبي عبد الله محمد الناصر بنصف مليون مجاهد، وفي 25 ذي القعدة

(1) انظر: معركة العقاب، شوقي أبو خليل، ص 23.

(2) انظر: موسوعة المغرب العربي (3/240).

سنة 607هـ أوائل أيار (مايو) سنة 1211م، جاز سلطان الموحدين بنفسه إلى الأندلس، ونزل في جزيرة طريف، ثم سار بعد أيام إلى إشبيلية وهناك كان الخطأ الفادح⁽¹⁾.

نتيجة لصغر سنه ولقلة خبرته، واستبداده بالرأي حيث أرسل خيرة جنده إلى حصن سلبطرة، فأنهك بذلك قواهم، ولبت الجيش أمام هذا الحصن ثمانية أشهر وهو ممتنع عليه، وأصر أبو عبد الله محمد الناصر نزولاً على نصح حاجبه أبي سعيد بن جامع، وكان الموحدون يشكون في صدق نيته - ولكن أبا عبد الله محمد الناصر وضع فيه كل ثقته، وأصر أبو سعيد بن جامع على ألا يتقدم جيش الموحدين قبل الاستيلاء على حصن سلبطرة.

وهكذا استمر الحصار طوال الصيف حتى دخل الشتاء، وعانى المغاربة في الجبال الوعرة المحيطة بالحصن من قسوة الطقس ما لا يطاق كما أودى المرض بحياة الآلاف منهم، وأخذت وسائل التموين لهذا الجيش تصعب وتتعثر يوماً فيوماً.

وحاول ملك قشتالة ألفونسو أن ينقذ الحصن ويرغم الموحدين على رفع الحصار ولكن هذه المحاولة لم تفلح، وفجع ألفونسو بفقده لولده الذي قاد الجيش لإنقاذ الحصن، وسقطت قلعة سلبطرة أخيراً بيد الموحدين، بسبب الجوع الذي حل بها بعد انتهاء مخزونها من التموين.

لقد فجر سقوط سلبطرة براكين الغضب النصراني في أوروبا، وتحرك الرهبان والقساوسة والملوك ليشيروا بذلاقتهم حماسة الشعوب النصرانية لكي تساهم في كفاح الصليب المقدس⁽²⁾.

وقام البابا أنوسان الثالث بدور كبير في نفخ روح الحقد في النصارى وطلب من الأساقفة في جنوبي فرنسا «بأن يعظوا رعاياهم بأن يسيروا بأنفسهم وأموالهم لمؤازرة ملك قشتالة وأنه - أي البابا - يمنح كل من لبي الدعوة الغفران التام»⁽³⁾.

وتحركات الأمواج البشرية النصرانية من أوروبا للوقوف مع نصارى الإسبان وكان الأساقفة يرأسون صفوف المحاربين من المدن المختلفة، وقد تولوا الإنفاق على حشودهم⁽⁴⁾.

(1) انظر: معركة العقاب، شوقي أبو خليل، ص 23.

(2) انظر: العقاب، ص 26.

(3) انظر: العقاب، ص 28.

(4) المصدر السابق، ص 29.

ووفدت على إسبانية جموع المحاربين من جميع البلدان الأوروبية ليقاتلوا دفاعاً عن النصرانية متقلدين الصלבان، وكان الفرنسيون أكثر الوافدين عدداً، وقاد أرنولد مطران أريونة جيشاً من لانجدوك وبروفانس وبرجونية يضطرم شوقاً للقاء المسلمين. ووفق أرنولد إلى ما هو أهم من ذلك، وهو أن يحمل بذلاقتة وضراعتة ملك نافار - بعد أن كان غاضباً من ملك قشتالة - أولاً على أن يؤيد قضية إسبانية بالمال والجند، ثم - وهو الأهم - على التعهد بأن يسير في فرسانه، وأن يشترك بنفسه في القتال.

واجتمعت في مملكة قشتالة ما لا يحصى من جنود النصارى المتعطشين لسفك دماء المسلمين، وكان في مقدمة تلك الحشود الضخمة ألمان من البارونات مع حاشياتهم، وبيدرو الثاني ملك أراغون في جيشه الضخم، كما توافدت إمدادات ليون وجليقية والبرتغال، وكانت قوات البرتغالية تتكون من عدد من الفرسان والمشاة ابارعين، يقودهم أمير برتغالي هو بيورو الثالث، أحد أبناء الملك سانشو الأول.

لقد تجمعت هذه الحشود في طليطلة التي لم تستطع أن تستوعبهم، فاضطرت الألوف الكثيرة أن تقيم في الخيام خارج المدينة، بأنواع من السلاح والملابس واللغات والعادات، لقد اشتركت أوروبا فعلياً بأمر من البابا وقامت فرنسا وإيطاليا بإرسال الأموال اللازمة والسلاح والمؤن كل ذلك مكن ألفونسو من أن يمد جيش الوافدين بالمؤن والرواتب المالية المغربية والهدايا النفسية إلى القادة والزعماء⁽¹⁾.

وفي روما أمر البابا أنوسان الثالث بالصوم ثلاثة أيام، والاكتفاء بالخبز والماء التماساً لانتصار الجيوش النصرانية، وأقيمت الصلوات العامة، وعمد الأكليروس والرهبان والراهبات إلى ارتداء السواد والسير حفاة، وسارت المواكب في الطرقات خاشعة متمهلة من كنيسة إلى أخرى، ومن دير إلى آخر، وألقى البابا أنوسان الثالث موعظة صليبية، طلب فيها إلى النصارى أن يتضرعوا إلى الله التماساً لنصر الإسبان.

وفي 20 حزيران (يونية) 1212م، تاهب الجيش النصراني للسير إلى لقاء المسلمين، ونظمت القوات في ثلاثة جيوش، حتى لا يصاب الجند أثناء السير بنقص في المؤن، وسار في الطليعة جيش القادمين من أوروبا وكان تعداداه ما بين ستين ومائة ألف محارب تحت قيادة إمرة القائد القشتالي (ديجو لوييزدي هارو) ويقود وحداته المختلفة مطران أربونة، ومطران بوددو (بُردال) وأسقف نانت.

(1) انظر: العقاب، ص 30، 31.

وكان الجيش الثالث بقيادة بيدور الثاني، وهو مؤلف من الأراغوانيين والقطلونيين فقط مع فرسان الداوية.

أما الجيش الثالث، وهو أضخم الجيوش الثلاثة، ويتألف من جنود قشتالة، ويقود وحداته كبير أساتذة جمعيات الفرسان، الأمير الليوني سانشو فرنانديز، والأمير البرتغالي بيورو، ودرريك مطران طليطلة، وخمسة أساقفة آخر.

وتقدر الرواية عدد الفرسان في هذا الجيش بثلاثين ألفاً، ولكنها لم تحدثنا عن عدد المشاة لحشدتهم الضخم الكبير⁽¹⁾.

أ - حصار قلعة رباح:

وفي اليوم الخامس في بدء السير من طليطلة في الرابع والعشرين من حزيران (يونية) 1212م، هاجم جنود النصارى حصن (مجلون)، وأبادوا جميع من فيه، بعد ذلك ساروا إلى قلعة رباح، وكانت بها حامية قوية من الموحدين، ولقي النصارى في عبور وادي يانة الذي تقع عليه المدينة صعاباً فادحة، إذ كان المسلمون قد نثروا على جانبي الوادي الصنابير والخوازيق الحديدية.

وهاجمت الجيوش الثلاثة قلعة رباح في جوانبها الثلاثة المنيعة، حتى سقطت المدينة في أيديهم، ولكن القلعة كانت مجهزة بالأبراج العالية، والأسوار المنيعة، وكان يخشى أن تقتضي حصاراً طويلاً. وأبدى ملك أراغون والمحاربون الوافدون في اقتحام المدينة شجاعة عظيمة، ولكنهم تكبدوا أفدح الخسائر ويقول يوسف أشباخ⁽²⁾: «وقبل أن يعود النصارى إلى مهاجمة القلعة، عقد مجلس حربي للبحث فيما إذا لم يكن من الأفضل أن يقتصر على تطويق القلعة، دون محاولة افتتاحها، وأن يبدأ بالسير توأماً لمهاجمة المسلمين»⁽³⁾.

لقد تغلب الرأي القائل بمهاجمة القلعة، إذ كان من المعروف أنها تحوي أموالاً هائلة، وكميات عظيمة من المؤن التي بدأ النصارى يشعرون بنقصها.

لقد ضيق النصارى على مسلمي القلعة واضطر قائدها أبو الحجاج يوسف بن

(1) انظر: العقاب، ص 32.

(2) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (2/113).

(3) انظر: معركة العقاب، ص 31.

قأدس بآن يفأوض النصارى وانسحب بجنوده وترك القلعة ووجد ألفونسو فى قلعة رباح كميات عظيمة من المؤن⁽¹⁾.

وسار النصارى إلى لقاء المسلمين بعزم أقوى، وأذكى شجاعتهم استيلاؤهم على حصن الأرك، وهو المكان الذى لقي فيه ملك قشتالة قبل ذلك بسبعة عشر عاماً هزيمته الشنعاء، وأذكى شجاعتهم قدوم سانشو ملك نافار، وقد اشتهروا بالبراعة فى الحرب والشجاعة فى القتال.

وعلى أثر ذلك تحرك الملوك الثلاثة، ألفونسو الثامن ملك قشتالة، وسانشو ملك نافار، وبيدرو الثانى ملك أرغوان نحو مدينة سلبطرة، وهى القلعة التى افتتحها الموحدون فى العام السابق بعد حصار طويل.

وعرض الملوك الثلاثة هنا جيشاً لم تخرج إسبانية النصرانية مثله من قبل، بيد أنهم لم يقفوا بسلبطرة لمناعتها واتقاء لحصار لا طائل منه، فاخترقوا ممر (ورادال) فى حبال سيار مورنيا (جبل الشارات) لكي يلقوا المسلمين فى ناحيتها الأخرى⁽²⁾.

ب - مقتل البطل يوسف بن قأدس أبو الحجاج:

عندما سقطت قلعة رباح ورجع قائدها الذى بذل ما فى وسعه وطاقته من أجل الإسلام والمسلمين، غضب السلطان الناصر على أبى الحجاج وبدس من وزيره أبى سعيد بن جامع أمر السلطان الناصر بقتل هذا المجاهد العظيم جهاراً، فكان لهذا الفعل أثر سيئ فى الجيش الإسلامى كله، ولا سيما فى جند الأندلس، ذلك لأنهم كانوا يعلمون أن ابن قأدس قد بذل كل المستطاع، وأن مقتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الذميم وهذا خطأ آخر وقع فيه السلطان الناصر⁽³⁾.

قلت: وهذا بالفعل يدل على ضيق أفق السلطان الناصر وعلى ظلمه لقادته، وعلى تأثره بنصائح لا تنفع الأمة ولا تقوى صفها ووحدتها فى مواجهة صفوف الأعداء، ولو كان هذا السلطان لديه فقه فى السياسة الشرعية ومعرفة بنفوس جنوده لكان الموقف غير ذلك ونجد فى الشريعة الغراء قواعد واضحة المعالم فى دفع المفاسد وجلب المصالح ومعرفة مقاصد الشريعة.

(1) انظر: معركة العقاب، ص 32.

(2) المصدر السابق، ص 35.

(3) انظر: المصدر السابق، ص 36.

إن هذا العمل الخاطيء الذي قام به الناصر لدين الله يجر على الأمة الهلاك والدمار والعار.

المعركة:

قام ملوك الإسبان في صباح 16 تموز (يولية) بترتيب جندهم لخوض المعركة، فربط بعضهم على سفح الجبل، والبعض فوق الربى، تزعم ألفونسو ملك قشتالة قلب الجيش مع احتفاظه بنوع من الإشراف على الجيش كله، وكان القلب يضم أربعة فرق:

1 - تتألف الفرقة الأولى من سكان الجبال القشتالية، ويقودها (ديجولوز).
2 - وتتألف الفرقة الثانية من فرسان قلعة رباح، وشنب ياقب، والاسبتارية والدواوية، وبعض جند الحدود القشتالية، ويقود هذه الفرقة الكونت (جونزالو نونيز دي لارا).

3 - والفرقة الثالثة وتتألف من جند وفرسان من قشتالة القديمة واشنترويش، وبسكونية، ويقودها الكونت (ردريك دياز كاميروس).

4 - وتتألف الفرقة الرابعة من الجند الاحتياطي من طليطلة، وبعض قوات ليون، ويقودها ألفونسو نفسه، فهو هنا يقلد تنظيمات المرابطين والموحدين، وكان يرافق القوات الاحتياطية فضلاً عن المطران (ردريك الطليطلي)⁽¹⁾، عدة أساقفة من قشتالة وليون مع جندهم.

وكان يقود الجناح الأيمن سانشو ملك نافارا، وفيه فرسان فرنسيون بقيادة آرنولد مطران أربونة، وجند جليقية والبرتغال وعلى رأسهم الأمير البرتغالي.

أما الجناح الأيسر، فكان ينقسم أيضاً إلى أربع فرق، ويتألف كله من قوات أراغون، ما عدا بعض جند المشاة القشتاليين، ويقوده الملك بيدروا، ومن حوله الأحرار والأرغونيون.

أما جيش الموحدين، فقد قسمه أبو عبد الله محمد الناصر تجاه جيش النصارى في سهل «تولوزا» وفق الأوضاع الموحدية إلى خمس فرق.

كانت الفرقة الأمامية تتألف من المتطوعة، وهم الذين يتطوعون من تلقاء

(1) انظر: تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين لأشباخ (117/2).

أنفسهم، وبدافع ذاتي محض للجهاد والموت في سبيل الله، ونشر الإسلام. وتقدرهم الرواية العربية بمائة وستين ألف مقاتل. واصطفت القوات الأندلسية في الميمنة، والقبائل البربرية في الميسرة، وأما القلب والقوات الاحتياطية فكانت تتألف من صفوة الجيش، من الجند المغاربة والنظاميين، أو بعبارة أخرى من الجند الموحديين. وضرب أبو عبد الله محمد الناصر قبته الضخمة الحمراء في وسط الصفوف، ربط أمامها جواده المسرج. وقعد في داخلها على درقته⁽¹⁾، إيذاناً باقتراب المعركة، ومن حوله حرسه من مشاة وفرسان. وشهر الجند حرايهم في اتجاه معسكر النصارى الإسبان ومن معهم من قوات أوروبية صليبية، فكانت سداً منيعاً دون اختراقه الموت.

ولما تمت استعدادات المعركة، خرج سلطان الموحديين من قبته وهو يرتدي عباءة سوداء من مخلفات جده عبد المؤمن، وقد رفع المصحف الشريف بإحدى يديه، وشهر سيفه بالأخرى بينما كان قرع الطبول الضخمة يدوي بشدة في ساحة المعركة⁽²⁾ وسارع جند المتطوعة المسلمين للقتال وطلب الشهادة في سبيل الله وكان هجومهم عنيفاً قوياً ولكنهم لم يستطيعوا أن يخترقوا صفوف النصارى التي كانت مدعومة بجماعات الفرسان الدينية - الاستبارية والدواوية - فاستطاعوا أن يردوا جموع المسلمين، وأن يمزقوها. واستشهد ألوف من المسلمين في سبيل الله والإسلام، ولكن القشتاليين حينما عمدوا إلى مطاردة المتطوعة المسلمين، وتقدموا بذلك ظافرين من قلب الجيش الإسلامي، حيث حُشدت صفوة الجند، لقوا أشد مقاومة، وسرعان ما اضطروا إلى مغادرة مراكزهم الأمامية، وارتدوا فارين، فتابعهم الفرسان المسلمون في ارتدادهم وفرارهم.

ولما رأى ملك قشتالة من الرُبى تطور المعركة على هذا النحو السيئ، أراد أن يسير بنفسه على رأس الجنود الليونيين الطليطليين، وهم جماعة مختارة كانت تؤلف القوة الاحتياطية، وأن يقتحم الميدان ليحاول محاولة اليأس الأخيرة، وكانت كلماته التي قالها لمطران طليطلة وهي: «إن الساعة قد حانت لتلقي الموت المجيد»⁽³⁾، تدل على أنه لم يكن يأمل النصر بعد. ولكن اعتراضات المطران ردت ألفونسو عن أن

(1) انظر: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (2/118).

(2) انظر: العقاب، ص 42.

(3) انظر: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (2/118) نقلاً عن العقاب ص 45.

يخوض بنفسه أعظم الأخطار، وأرسلت في الوقت ذاته قوات من أشجع الجند لإمداد الجيش المرتد، وسار الأبحار أنفسهم على رأس الجند إلى قلب المعجمة، وهم يرفعون أعلاماً عليها صورة المسيح، يثيرون بذلك أعظم الحماسة الصليبية في نفوس جندهم. وانتهزت جماعات الفرسان والجند الجبليين فرصة تقدم الإمدادات الجديدة، ليلموا شعثهم، وينظموا جموعهم، ثم عادوا فاستأنفوا زحفهم بمؤازرة القوى الجديدة، وهم يحطمون كل مقاومة في اتجاه قلب الجيش الإسلامي، حيث كان الناصر لدين الله وحرسه، وفي الوقت الذي ضربوا فيه هجومهم على السلاسل الحديدية التي احتشدت من ورائها ألوف مؤلفة من الحراس شاهرين الحراب، كان جناح الجيش الإسلامي قد حطما، ذلك أنه ما إن بدأت الموقعة حتى ركن الأندلسيون الذين كانوا يقاتلون مرغمين مع الموحدين إلى الفرار، وترتب على ذلك أن وقع اضطراب عظيم في الجيش الإسلامي، ولم يصمد في ذلك القتال إلا جند الموحدين النظاميين، والحرس المغاربة، فقد صمدوا في مقاومة هجمات النصارى، وصدوهم في كل ناحية بشجاعة فائقة، وبسالة نادرة، ورجولة فريدة، وجلد لا مثيل له، ولكن الدائرة حطمت وأصبح نصر النصارى لا مفر منه، وحاول الناصر لدين الله أن يلهب مشاعر جنوده ويذكي حماسهم حتى اللحظات الأخيرة. ولما تحققت الهزيمة، تراجع مع نفر من جنوده واتجه نحو بياسة ولكنه لم يقف بها، بل سار منها إلى إشبيلية.

لقد كانت هذه المعركة الخاسرة للمسلمين السبب في هلاك الأندلس وبداية أفول شمس الإسلام في الأندلس، حيث كانت النهاية، أو نهاية البداية مصرع غرناطة.

لقد كانت حشود النصارى في معركة العقاب ضخمة جداً وكانت التعبئة والنفير العام على مستوى أوروبا كلها يدفعهم الحقد الصليبي للانتقام من المسلمين والقضاء على شوكتهم وإضعاف قوتهم⁽¹⁾.

لقد استشهد في هذه المعركة الألوف من المسلمين ومن العلماء العاملين المجاهدين ومن أشهر هؤلاء العلماء:

1 - أبو عمر أحمد بن هارون بن عات النضري (542 - 609هـ). من أهل شاطبة، صاحب التأليف الذي «كان أحد الحفاظ للحديث، يسرد المتون والأسانيد

(1) انظر: العقاب ص 46، 47.

ظاهراً، لا يخل بحفظ شيء منها. موصوفاً بالدراية والرواية، غالباً عليه الورع والزهد، على مناهج السلف، يأكل الجشب، ويلبس الخشن، وربما أذن في المساجد، وله تأليف دالة على سعة حفظه، مع النظم والنثر. ثم توجه إثر ذلك غازياً. وشهد وقعة العقاب التي أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها. وكانت السبب الأقوى في تحيف الروم بلادها حتى استولت عليها ففقد حينئذ ولم يوجد حياً ولا ميتاً وذلك يوم الإثنين منتصف صفر سنة تسع وستمائة..⁽¹⁾.

2 - القاضي الفقيه أبو إبراهيم إسحاق بن يعمر المجابري. من سكان فاس الذي تولى قضاء سبتة ثم بلنسية «فقد في كائنة العقاب يوم الإثنين الرابع عشر من صفر سنة تسع وستمائة...».

3 - أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفهري. من أهل سبتة، الذي «استوسع في الرواية. وكان معروفاً بالزهد، واستشهد في كائنة العقاب»⁽²⁾.

4 - أبو محمد تاشفين بن محمد المكتب، من أهل فاس «كان زاهداً، عابداً، معلماً للقرآن له حظ من قرض الشعر، ودخل الأندلس غازياً وقدم قرطبة في ذي الحجة سنة ثمان وستمائة، فأقام هنالك أياماً يلقي الزاهدين.. ثم خرج إلى غزوة لعقاب. ذكره ابن الطليسان وقال: أراه استشهد بها فإنه انقطع عني خبره..»⁽³⁾.

5 - أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي، من أهل اليُسَّانة عمل قرطبة «ولي قضاء موضعه مدة طويلة، مضافاً ذلك إلى الصلاة والخطبة بجامعه. وله تأليف في رجال الموطأ...، واستشهد في وقعة العقاب منتصف سنة 609»⁽⁴⁾.

لقد كان ديدن العلماء المسلمين وفقهائهم وقضائهم تصدر المقدمة عند الأحداث والملمات وفي المخاطر ويتسابقون في بذل دمائهم وأرواحهم من أجل الإسلام والمسلمين.

ثالثاً: أسباب الهزيمة في العقاب:

1 - الإعجاب بالكثرة، وكأن غزوة حنين تتكرر بعد حوالي ستة قرون في

(1) التكملة (1/ 101 - 102) رقم 262 نقلاً عن التاريخ الأندلسي ص 494.

(2) المصدر السابق (1/ 202) رقم 536 نقلاً عن التاريخ الأندلسي ص 495.

(3) المصدر السابق (1/ 235) رقم 623 نقلاً عن التاريخ الأندلسي ص 495.

(4) التكملة (2/ 585 - 586) رقم 1559 نقلاً عن التاريخ الأندلسي ص 495.

هضاب الأندلس. إن الثقة بآلاف الجند، وبمقدرة القادة، أفقد القائد وأفقد الجند اعتمادهم على الله سبحانه، وهذا يفسر لنا عبارة الناصر لدين الله التي قالها قبيل انسحابه، ألا وهي: «صدق الرحمن وكذب الشيطان»⁽¹⁾.

2 - لم يكن التكتيك الحربي على مستواه المطلوب، ولم تكن المجالس الاستشارية ذات قيمة بالنسبة للناصر لدين الله ولذلك رفض نصيحة أصحاب الخبرة برفع الحصار على سلبطرة وأخذ برأي الوزير أبي سعيد بن جامع الذي أصر على ملازمة الحصار واستمر لمدة ثمانية أشهر، وتعرض الجيش الموحد لأقسى عوامل الطبيعة ونقص التموين والمؤن بسبب الأخذ بالرأي الفردي وترك الرأي الجماعي.

3 - ضعف شخصية الناصر لدين الله الذي أصبح ألعوبة وخاتماً في يد الوزير أبي سعيد بن جامع.

4 - سبب مقتل أبي الحجاج يوسف بن قادم أمير قلعة رباح استياء في الجيش كله ولا سيما بين جند الأندلس لعلمهم أن ابن قادم قد بذل كل المستطاع، وأن قتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الذميم، كل هذا مهد للفرار وانسحاب الأندلسيون من المعركة وركنوا إلى ترك القتال بعد معارك قصيرة وكان هذا الانفصال غير المتوقع من أسباب وعوامل الهزيمة النكراء.

5 - إصرار ملك قشتالة على الانتقام من هزيمة الأرك وأخذ بكافة الأسباب التي تعين على تحقيق النصر الحاسم، فعمل على توحيد الجبهة الداخلية وطلب إمدادات من البابا ومن ملوك أوروبا وجعل الحرب مقدسة من أجل العقيدة.

6 - الثورات التي حدثت في المغرب مع بني غانية جعلت الموحدون ينفقون فيها نفائس أموالهم ويقدمون خيرة رجالهم⁽²⁾.

لقد فقد المسلمون ثلث قواتهم في هذه المعركة وقام النصارى بقتل كل الأسرى الذين وقعوا بين أيديهم وبأشر ألفونسو احتلال حصون المسلمين والمدن: فرال، تولوزا، بياسة، بلقيس، بانيوس، وابدة التي أعملوا السيف في رقاب أهلها وحطموا كثيراً من مبانيها، بينما كان الرهبان والقساوسة يرتلون الصلوات فرحاً بنكايه المسلمين، ولولا الأمراض التي فتكت بجيوش النصارى لتابعوا بطشهم بالمسلمين،

(1) انظر: العقاب، ص 50.

(2) انظر: العقاب، ص 51.

فاضطروا إلى الرجوع إلى طليطلة حاملين مئات الأسرى من النساء والصبية، ولكن بعد ارتكابهم المجزرة الرهيبة⁽¹⁾.

لقد كانت المجزرة اللا إنسانية في مدينة بياسة. يقول أشباخ في تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين⁽²⁾: «ولم يكن في بياسة سوى المرضى والضعاف، والظاهر أنها كانت بمثابة المستشفى للجيش، وكان هؤلاء التعساء قد احتشدوا في مسجد المدينة الكبير ينتظرون مصيرهم جزعين، فشاءت قسوة النصارى أن يجهزوا عليهم جميعاً بالسيف، ما عدا قلائل منهم أخذوا أسرى؛ بل ذهب النصارى الذين أعمتهم نشوى الظفر في قسوتهم وبطشهم إلى أسفل درك، حينما هاجموا مدينة أبدة التي اعتصم بأسوارها القوية بعض فلول الجيش المنهزم وسكانها العزل، وكان المسلمون يأملون نظراً لمناعة المدينة الطبيعية والحربية أن يردوا هجمات أعدائهم حتى يحل فصل الشتاء.

ونظم النصارى في الواقع على المدينة هجوماً عاماً خسروا فيه كثيراً من القتلى ولم يسفر عن أي نجاح، لولا أن استطاع الأرغونيون أن يتسلقوا الأسوار في أضعف نقطة فيها، وأن يحتلوها، ولكن القلعة وباقي أطراف المدينة بقيت على ثباتها رغم جهود الإسبان، وعندئذ رأى الملوك، أن خير الطرق وأكثرها إنسانية هي أن يقبل النصارى ما عرضه المسلمون، وكان المسلمون حينما سقطت بعض أجزاء السور في يد الأرغونيين قد خشوا العقاب، وأرسلوا إلى ملوك النصارى يعرضون عليهم فدية قدرها ألف قطع من الذهب (مليون دينار)، على أن يتركوا المدينة حرة يسكنها المسلمون وفقاً لشريعتهم وشعائر دينهم، وهكذا قبل العرض وعقد الملوك مع المدينة اتفاقات بهذا المعنى نظراً لما أنسوه من صعاب في افتتاحها.

ولكن الأحبار الظالمين إلى دماء المسلمين، أعلنوا بطلان هذا الاتفاق، وطلبوا أن تسلم المدينة دون قيد أو شرط، فشاء ضعف الملوك أن ينقضوا العهد المقطوع، منتحلين لذلك عذراً هو أن المسلمين بعد أن فتحوا أبواب المدينة للنصارى، لم يؤدوا الضريبة المضروبة عليهم في الحال، وسرعان ما أطلق النصارى العنان لقسوتهم في معاملة هؤلاء المنكوبين، فقتل من في أبدة زهاء ستين ألفاً، وسُبي مثل هذا العدد،

(1) انظر: العقاب، ص 52.

(2) انظر: تاريخ الأندلس ليوسف أشباخ (2/123).

وهدمت الدور بعد أن خلت المدينة من سكانها، وعندئذ أبدى الأخبار رضاهم، ورتلوا أناشيد الشكر ضارعين إلى المولى أن يشملهم برحمته»⁽¹⁾.

أين هذا من سماحة الإسلام ورحمته وإنسانيته ووفائه للعهود واحترامه للأديان؟

قال الشاعر:

ملكنا فكان العدل منا سجية فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتهم قتل الأسارى وطالما غدونا على الأسرى نمن ونصفح
فحسبكم هذا التفاوت بيننا وكل إناء بالذي فيه ينضح⁽²⁾.

لم تكن موقعة العقاب سبباً في تحطيم قوى السلطان الناصر بالأندلس فقط ولكنها أدت فوق ذلك إلى تدمير سلطان الموحدين في المغرب أيضاً. فقامت دويلات في المغرب وبدأ عصر ظهور ملوك الطوائف الثاني بعد الموحدين وآل الأمر إلى سقوطها بيد النصارى.

جاء في نفع الطيب: «كانت العقاب سبب ضعف المغرب والأندلس، أما المغرب فبخلاء كثير من قراه وأقطاره، وأما الأندلس فبطلب العدو لها...»⁽³⁾. وبعد هزيمة العقاب غادر الناصر لدين الله ميدان الحرب الذي غص بالقتلى من جنده مسرعاً إلى إشبيلية، وهناك صب حمام غضبه على شيوخ الموحدين المحليين وسحقهم وأذل القادة والزعماء وفصل وعين ثم رجع إلى الأندلس حزينا كئيباً، ولكي ينسى حزنه وكدره قضى بقية أيامه في الملذات والشهوات، ولم يقم بشيء من شئون الحكم سوى أن عين لولاية عهده ولده أبا يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر بالله، وكان يومئذ طفلاً في العاشرة من عمره، ولما انتهى من هذا التعيين، ترك شئون الحكم كلها للطفل ووزرائه واعتكف في قصره وحدائقه بمراكش، وأطلق العنان لأهوائه وملاذه وقضى أمداً لا يجاوز العام في هذا اللهو الصاخب ثم دس له خدمه السم وتوفي مسموماً بأمر من وزرائه؛ لأنه كان قد عزم على قتلهم، فعاجلوه بالقتل. فمات ولما

(1) انظر: العقاب، ص 53.

(2) انظر: صلاح الدين بطل حطين لعبد الله علوان، ص 84.

(3) نفع الطيب (420/1).

يجاوز الرابعة والثلاثين من عمره في 11 شعبان 610هـ/25 كانون الأول (ديسمبر) سنة 1214م، بعد أن حكم خمسة عشر عاماً وبضعة أشهر⁽¹⁾.

وبعد موت السلطان الناصر بدأ الانحدار في دولة الموحدين والصراع الداخلي والأهداف الخسيسة تظهر بين زعماء الموحدين.

والذي يقلب صفحات تاريخ تلك الفترة من الدولة الموحدية يدرك مدى الخزي والعار والاستهانة بديار المسلمين من أجل تحقيق مصالح شخصية على حساب الشعوب والعقيدة. وهكذا توضع أمور الدول في يد أشخاص يخونون الله ورسوله وقرآنه وشعوبهم بعد أن ماتت ضمائرهم، فنجد هنا إدريس المأمون بن المنصور يزحف من الأندلس ويقرر العبور إلى المغرب معتمداً على محالفة الغرب ومعاونة قوات مسيحية من جنود قشتالة يقدر عددها بخمسمائة فارس مقابل التنازل عن عشرة حصون بالأندلس لمملكة قشتالة وقبوله ببناء كنيسة في مراكش تجاور جامع القرويين، وهكذا دخلت دولة الموحدين في صراع داخلي عنيف كلف الموحدين دماءً وأموالاً، وتفككاً داخلياً وسقطت دولة الموحدين بعد فترة طويلة من الصراع والانحدار والضعف عام 668هـ/1269م رغم أن الدولة كانت قد انتهت فعلاً عام 1212م وليس عم 1269م إذ أن الدولة استمرت تمارس وجودها طوال سبعة وخمسين عاماً بعد معركة العقاب ولكنها لم تكن دولة بمعنى الكلمة؛ إذ بدأت عوامل الانهيار والانقسام والتفكك تتاب الدولة، وأخذت تتهاوى مع الأيام حتى كانت أيامها الأخيرة على أيدي بني مرين ومن قبلهم بني عبد الواد في تلمسان وبني حفص في تونس⁽²⁾.

رابعاً: أسباب سقوط دولة الموحدين:

1 - ظلمهم الفظيع للمرابطين وسفكهم للدماء واعتدائهم على الأموال وسيبهم للنساء بدون وجه حق، لقد تعامل الموحدون مع المرابطين على نحو ظالم، مستخدمين كل وسائل العنف مع خصومهم؛ ولذلك كفروهم واستحلوا دماءهم وأموالهم وسبوا نساءهم، فأفنوا أعداداً كبيرة من المغاربة، ولأسباب تبدو أحياناً

(1) انظر: العقاب، ص 57.

(2) انظر: موسوعة المغرب العربي (3/248 إلى 253).

واهيّة، أو أن ليس لها ما يبررها، فمضت فيهم سنة الله في الظلم والظالمين، والغالب أن الظالم حسب سنة الله في الظلم والظالمين - يعاقب في الدنيا على ظلمه للغير، ومن العادة أن المظلوم يدعو عادة على ظالمه لينتقم الله منه في الدنيا ليشفي ما في صدره من غيظ على ظالمه وحيث أن دعوة المظلوم مستجابة لقوله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه رسول الله إلى اليمن . . . « . . . واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب» .

ومن سنته تعالى في الظلم والظالمين أنهم لا يفلحون ولا يفوزون في الدنيا وإن مآلهم إلى الخسران والهلاك كما أن الأمة الظالمة لها أجل محدود⁽¹⁾ .

إن الظلم في الدولة كالمرض في الإنسان يعجل في موته بعد أن يقضي المدة المقدره له وهو مريض، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم في الأمة والدولة يعجل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها واضمحلالها خلال مدة معينة يعلمها الله هي الأجل المقدر لها، أي الذي قدره الله لها بموجب سنته العامة التي وضعها لآجال الأمم بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل، أو من عوامل الهلاك كالظلم التي يظهر أثرها وهو هلاكها بعد مضي مدة محددة يعلمها الله⁽²⁾ . قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ [الأعراف: 34] . قال الألوسي في تفسيره لهذه الآية: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [الأعراف: 34]، أي لكل أمة من الأمم الهالكة أجل أي وقت معين مضروب لاستئصالهم⁽³⁾ . ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئاً مؤكداً ولكن وقت حلوله مجهولة لنا، أي أننا نعلم يقيناً أن الأمة الظالمة تهلك حتماً بسبب ظلمها حسب سنة الله تعالى في الظلم والظالمين، ولكننا لا نعرف وقت هلاكها بالضبط، فلا يمكن لأحد أن يحدد بالأيام ولا بالسنين، وهو محدد عند الله تعالى⁽⁴⁾ .

إن سنة الله مطردة في هلاك الأمم الظالمة، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى

(1) انظر: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، د. عبادة كحيلة، ص 119 .

(2) انظر: السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، ص 121 .

(3) انظر: تفسير الألوسي (8/112) .

(4) انظر: السنن الإلهية في الأمم، ص 121 .

نَفْسُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١١٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ
 ءَالِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْسِيرٍ ﴿١١١﴾
 وَكَذَلِكَ أَخَذُ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١١٢﴾ [هود: 100-102].

إن الآية الكريمة تبين أن عذاب الله ليس مقتصراً على من تقدم من الأمم الظالمة بل إن سنته تعالى في أخذ كل الظالمين سنة واحدة فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك قاصر بأولئك الظلمة السابقين، لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم قال: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذُ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [هود: 102]. فبين الله تعالى أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التي أدت إلى هلاكهم فلا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد. فالآية تحذر من وخامة الظلم.

إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس والناس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم، فهذه الدولة مع كفرها تبقى، إذ ليس من سنته تعالى إهلاك الدولة بكفرها فقط، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم اناس فيما بينهم⁽¹⁾. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 117].

قال الإمام الرازي في تفسيره: «إن المراد من الظلم في هذه الآية: الشرك. والمعنى أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم يعامل بعضهم بعضاً على الصلاح، وعدم الفساد»⁽²⁾.

وفي تفسير القرطبي قوله تعالى: ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي بشرك وكفر: ﴿وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 117] أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق. ومعنى الآية: إن الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط⁽³⁾.

قال ابن تيمية في هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة: «وأمر الناس إنما تستقيم مع العدل الذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع

(1) انظر: السنن الإلهية في الأمم والأفراد، ص 122.

(2) تفسير الرازي (76/18).

(3) تفسير القرطبي (114/9).

الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام. وذلك أن العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها من خلاق - أي في الآخرة - وإن لم تقم بالعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة⁽¹⁾.

إن دولة الموحدين قامت على أساس دموي في إرساء دعائمها ولذلك أسرف ابن تومرت في سفك الدماء وهتك الأعراض ومصادرة الأموال وسار خليفته عبد المؤمن على منواله وكذلك كثير من زعماء الموحدين، فجرت فيهم سنة الله التي لا تبدل ولا تتغير ولا تتجامل، فانتقم من الظالمين وجعل بأسهم فيما بينهم حتى أفضى أمر الدولة إلى الزوال.

2 - من أسباب سقوط دولة الموحدين، ثورة بني غانية وهم من بقايا المرابطين: حيث قامت هذه الثورة على أسس فكرية وعقدية ناهضت الأصول العقدية والأسس الفكرية التي قامت عليها دولة الموحدين والتزمت بأصول منهج أهل السنة والجماعة وأعلنت انتماءها وولاءها للخلافة العباسية السنية، ورفعت شعاراتها وحاربت بكل ما تملك نفوذ الموحدين وظلمهم الوحيم واستمرت لمدة خمسة عقود متتالية كانت تلك الحروب الطاحنة من الأسباب المباشرة في ضعف دولة الموحدين ومن ثم سقوطها.

3 - ثورات الأعراب المتتالية حيث إن قبائل بني سليم وبني هلال التي سكنت إفريقية والمغرب الأوسط وبعد ذلك المغرب الأقصى لا تنظر إلا لمصالحها، فأحياناً تتحالف مع بني غانية ومع قراقوش التقوي ضد الموحدين، وأحياناً تخضع لدولة الموحدين ثم دخلت في الصراع الداخلي بين أعداء الموحدين، فكانت من الأسباب التي فجرت الثورات الداخلية والتي ساهمت في الإفساد ودمار دولة الموحدين، لقد قدم الأعراب البدو إلى المغرب الأقصى أيام المنصور الموحيدي عام 584هـ ومنذ وفاة المستنصر سنة 620هـ أصبحوا يتدخلون في شئون الدولة ويرهقونها بطلباتهم ويعملون بدورهم على عزل وتولية بعض ملوك الموحدين. ومن هؤلاء الأعراب بنو معقل،

(1) انظر: رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق صلاح

وبنو جابر «ولهؤلاء دور هام فى تعريب قسم من سكان المغرب على سواحل الأطلسى، بمصاهرتهم للبربر، وبالاحتكاك بهم»⁽¹⁾.

4 - ثورات الأندلس ضد دولة الموحدين، ومن أشهر هذه الثورات: ثورة محمد بن مردنيش الذى لم يتم القضاء عليها إلا بعد ربع قرن من تحالفه مع النصارى ولم يبال ابن مردنيش أن يتحالف مع النصارى من أجل القضاء على نفوذ الموحدين فى الأندلس، ولقد كلفت هذه الثورة دولة الموحدين الأموال الكثيرة وقتل فى تلك المعارك خيرة رجالهم، وثورة ابن هود، وعامل بلنسية الذى التجأ إلى ملك ليون.

وتقايس الأندلسيون عن نصرة الموحدين لأول فرصة واتتهم، عندما أهانهم الوزير ابن جامع خلال معركة العقاب⁽²⁾.

5 - النزاع على الخلافة بين الموحدين ولم يستطيعوا أن يضعوا نظاماً ثابتاً لتولى الخلافة عندهم:

كان لهذا النزاع آثار وخيمة على الدولة ومصيرها، فمنذ وفاة المستنصر أصبح من المعتاد أن يكون على رأس الدولة أكثر من خليفة، فاضطر كل منهم أن يستجد بعناصر من قبائل الموحدين والعرب المهاجرين وأصحاب المصالح من حكام الولايات المستبدين، بل وبأعدائهم من النصارى فوجدت مراكز القوى فى النزاع فرصة سانحة لبسط نفوذها وتولية من تشاء وعزل من تريد، فسقطت هيبة الخلافة، مما ساعد على اضمحلالها وزوالها. ونستطيع أن نحدد آثار طريقة اختيار الخليفة وما أعقبها من نزاع على السلطة على كيان الدولة فى ثلاثة مظاهر: تعدد الخلفاء فى وقت واحد، والاستعانة بالنصارى، وتولية حكام ضعاف⁽³⁾.

أ - ولما تولى الخلافة عبد الواحد بعد وفاة يوسف المستنصر خالف عليه بعد شهرين ابن أخيه العادل بن المنصور بمرسية، وحسم الأمر بخلع عبد الواحد ثم قتله والإجماع على خلافة العادل، وبعد قليل خرج على العادل واليه على قرطبة فى 623هـ/1226م السيد أبو محمد عبد الله العباسى وبمقتل العادل بايع الموحدون المأمون ابن المنصور، فلما خشى الأشياخ قوة شخصيته بايعوا يحيى بن الناصر، وظل كل

(1) انظر: العقاب، ص 68.

(2) انظر: دراسات فى تاريخ المغرب الإسلامى، عز الدين عمر أحمد موسى، ص 83.

(3) انظر: دراسات فى تاريخ المغرب الإسلامى، ص 63.

منهما مدعياً للأمر، عاملاً على إحراز النصر على منافسه طوال خلافة المأمون وما يقرب من الأربعة أعوام من خلافة الرشيد (شوال 624 - 633هـ / 1226 - 1227م) وفي عام 629هـ / 1231م ظهر إلى جانبهم خليفة ثالث لما ادعى بالأمر السيد أبو موسى بن المنصور بسبته وتسمى بالمؤيد، فلما حصره المأمون فر إلى ابن هود في الأندلس. ولا ريب في أن هذا النزاع أفقد الخلافة هيبتها، فأهملت الإدارة وانتشرت الفتن، وقلت المجابي، واستبد الولاة بولاياتهم عندما اندلعت نار الحروب الضارية بين بني عبد المؤمن⁽¹⁾.

ب - دخل زعماء الموحدين من البيت الحاكم في محالفات مع النصارى من أجل تحقيق كل فريق النصر على خصومه، فأبو محمد عبد الله البياسي يستعين بالنصارى، والمأمون لما نكث أهل مراكش بيعته وهو بالأندلس استنصر ملك قشتالة الذي اشترط عليه عشرة حصون يختارها وأن يبني كنيسة للروم بمراكش مقابل عدد من الفرسان الروم، فهكذا دفع الصراع أمراء الموحدين إلى التنازل عن أراضي الدولة في سبيل تحقيق مصالحهم الخاصة.

ج - إن النزاع بين أمراء البيت الحاكم في دولة الموحدين جعل المتنفذين من أشياخ الموحدين أو الإداريين أو القواد العسكريين يتدخلون في اختيار الحكام منذ وفاة المستنصر، ولما كانت الخلافة قد استقرت في بني عبد المؤمن فقد عمدوا لتولية حكام ضعفاء صغار السن أو مقعدي الشيوخ أو باحثين عن ملذاتهم⁽²⁾.

إن ضعف الخلفاء يسر طريق مجموعات متعددة للسيطرة والتسلط على مقدرات الدولة والتحكم في سياستها وتوجيهها. وكان لأشياخ الموحدين أثر بالغ في ذلك من دون سائر المجموعات الأخرى إدارية أم قبلية أم عسكرية⁽³⁾.

ومنذ وفاة الناصر استبد هؤلاء الأشياخ بالأمور، فرفعوا للخلافة من شاءوا وخلعوا من كرهوا، وقتلوا من أرادوا، وصار أمرهم كالأثرأك مع بني العباس⁽⁴⁾.

إن أشياخ الموحدين الذين احتلوا المراكز الأساسية في الدولة أصبحت لهم

(1) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص 84.

(2) انظر: المصدر السابق، ص 85.

(3) انظر: المصدر السابق، ص 86.

(4) انظر: المصدر السابق، ص 87.

مكاسب لن يتخلوا عنها، فكانوا دائماً يسطون نفوذهم لكيلا يفلت زمام الحكم من أيديهم ولهذا استبدوا. ولما كانت مصالحهم متضاربة فقد أغرقوا الدولة في فتن وثورات لم تهدأ⁽¹⁾.

إن هذا الخلاف الشديد والنزاع الذي استحكم بين أبناء عبد المؤمن، وظهور الخلفاء الضعفاء وتحكم أشياخ الموحدين على العاصمة، ونشوب الفتن فيها، جعل ولاية الأقاليم يستبدون بولاياتهم، وانفصل بعضهم نهائياً عن مراكزهم. لقد رافق الضعف السياسي المتمثل في الخلفاء وأشياخ الموحدين والولاية ضعف إداري ظهر في تحكم الولاة والوزراء.

لقد كانت الإدارة الموحدية في عصر ازدهار الدولة تمتاز بدقة الجهاز الإداري، وحسن ضبطه، ومتابعة الخلفاء وإشرافهم بأنفسهم، وكان عمل الوزراء والولاة هو التنفيذ والتبليغ ومن ظهرت منه بوادر الاستبداد والتهاون نكب بلا رحمة⁽²⁾.

6 - الانهيار العسكري الذي أصاب دولة الموحدين، وتغير أهداف الجيش الموحي:

لا شك أن النزاع السياسي وضعف الهيكل الإداري للدولة تركا أثراً بالغاً في التنظيم العسكري للدولة، ولقد كانت قوات الموحدين العسكرية على مستوى رفيع من التعبئة المعنوية والاستعداد المادي، ولذلك حققوا انتصارات هائلة على خصومهم وحفظوا دولتهم من الطامعين في إسقاطها، إلا أن جيش الموحدين في زمن السلطان الناصر فقد قدرته على الضبط والربط وعلى وضع الخطط الحربية وضعاً صحيحاً وتنفيذاً أكيداً.

وظهر ذلك العجز القيادي والقدرة القتالية في معركة العقاب التي انهزم فيها الموحدون وتأثرت معنوياتهم القتالية ولم يستطيعوا بعد تلك الكسرة العنيفة في موقعة العقاب أن يغدوا جيشاً قادراً على تحقيق انتصارات بل تابع جيش الموحدين مسيرته الهابطة، فتكرس انحلاله وتفككه في الهزائم المتكررة أمام النصارى في الأندلس وأمام بني مرين في المغرب الأقصى.

لقد ساهم في ضعف وانحلال الجيش، ضعف مبادئ الموحدين في نفوس

(1) انظر: المصدر السابق، ص 89.

(2) انظر: المصدر السابق، ص 91، 92.

الجند الذين أصبح همهم الأوحاد الغنائم وجمعها لا القتال في سبيل المعتقد والمبدأ والفكرة.

ولقد تبدل هدف القادة في استعمال الجيش، فبدلاً من ردع الثوار المحاربين وجهاد الأعداء الكافرين تحوّل إلى اتخاذ الجيش أداة سياسية للاستعلاء وفرض النفوذ لحساب أشخاصهم أو لحساب غيرهم ولذلك فتحت أبواب الانضمام للجيش من المرتزقة من عرب وعجم.

لقد كان إدخال العربان في الجيش الموحيدي كافة على أهدافه ونظامه إذ لا همّ لهم سوى السلب والنهب واكتساب المال ولا يعرفون نظاماً ولا يتقيدون بأوامر، وبعد النزاع بين السادة والتسلط من مراكز القوة وجد هؤلاء العربان سوقاً رائجة وتجارة رابحة، ففي كل فتنة تنشب وكل حرب تندلع كان لهم دور بارز يشايعون هذا أو ذاك متوخين مصلحتهم المادية، ولا يتورعون عن بيع قائدهم مقابل جعل من المال فينهمون ساعة الصدام الحاسمة⁽¹⁾.

7 - الترف والانغماس في الشهوات الذي وقع فيه خلفاء الموحيدين المتأخرون وانهماكهم في ملذاتهم غير مهتمين بشئون الدولة والحكم، فقد فقدت الدولة سهر الحكام الأول وتدقيقهم في أمور الحكم، وإشرافهم على كل أمر جل أو صغر، فالناصر منذ هزيمة العقاب احتجب وانهمك في الملذات حتى وافاه حينه، ويوسف المستنصر لم يخرج من حضرته طوال أيام خلافته، وكان مولعاً بانتجاع البقر والخيول في رياضة، وتوفي من طعنة بقرة شرود، والمرضى كان ميالاً للدعة والمسالمة، ومولعاً بالسماع ليلاً ونهاراً⁽²⁾ وكذلك المقربون منهم.

وهكذا أصبح هؤلاء المترفون لا يهتمون إلا بملاذ الدنيا وشهواتها وجمع المال لذلك، ولا يهمهم ما يكون في الناس من منكرات فهي لا تقلقهم ولا يnehون عنها لأن انشغالهم واهتمامهم بما يجلب لهم الملذات فقط ولو كان ذلك على حساب الآخرة ونعيمها، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقْتَةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 116]. وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أراد

(1) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص 95، 96.

(2) انظر: المصدر السابق، ص 86.

بالذين ظلموا: تاركى النهي عن المنكرات، أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما اهتموا بالتنعم والترف والانغماس في الشهوات والتطلع إلى الزعامة والحفاظ عليها، والسعي لها وطلب أسباب العيش الهنيء⁽¹⁾.

وقد مضت سنة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة وابتعدوا عن شرع الله تعالى بالهلاك والعذاب.

قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرِيْبٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَنَّا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْكِرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنبياء: 11-13].

ومن سنة الله تعالى جعل هلاك الأمة بفسق مترفيها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: 16].

وجاء في تفسيرها: وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها أي متنعميها وجباريها وملوكها ففسقوا فيها فحق عليها القول فأهلكناها. وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع؛ لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال، وما وقع من سواهم إنما وقع باتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم آكد⁽²⁾.

8 - تقلص أراضي الدولة في إفريقية والمغرب والأندلس:

فنتيجة لضعف السلطة المركزية، وتناحر عناصرها، اغتنمت المراكز البعيدة الفرصة وانفصلت، فخرجت الأندلس عن طاعة الموحدين وتبعتها إفريقية، وتقلص نفوذ الموحدين بالمغرب الأقصى نفسه حتى سقطت عاصمتهم في يد المرينيين.

ففي فترة الانحلال ازداد ضغط الممالك المسيحية على الأراضي الأندلسية: أرغون من الشرق وقشتالة من الشمال والبرتغال من الغرب، وظهر في شرق الأندلس أبو عبد الله محمد بن هود في رجب 625هـ/1228م في مرسية وحكم تحت شعار العباسيين وسيطر ابن هود على معظم الأندلس وخلع أهل الأندلس طاعة الموحدين

(1) انظر: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، ص 186.

(2) انظر: تفسير الألوسي (42/15).

«وقتلوهم في كل بلد منها وأجلوهم واستأصلوهم إلا من ستره الله منهم وأخفاه في ذلك الوقت عنهم»⁽¹⁾.

ودخلت الأندلس في دور طوائف ثالث فقام 626هـ/1229م زيان بن مردنيش وفي سنة 630هـ/1233م ثار محمد بن يوسف بن الأحمر بأرجونة ونازع ابن هود على زعامة الأندلس فما جاء عام 636هـ/1239م إلا وقد سيطر على غرب الأندلس⁽²⁾.

زالت هيبة الموحيدين من نفوس الأندلسيين وتحولوا شطر تونس حيث القوة الموحدية الجديدة بقيادة الحفصيين، واضطرت الأندلس لمجابهة النصارى منفردة، فابتلعوها ما عدا دولة بني نصر في غرناطة، وسقطت حواضر الأندلس واحدة تلو الأخرى، فسقطت قرطبة عام 633هـ/1236م وبلنسية في عام 636هـ/1239م، ومرسية 644هـ/1246م وإشبيلية 646هـ/1248م وكان هذا السقوط المريع في مدة قصيرة جداً.

وانفصلت إفريقية سنة 627هـ/1230م، وقد ساعد على قيام دولة الحفصيين بها بعدها عن العاصمة، ثم إن الصراع والثورات والفتن جعلت أهل المدن يتشوقون للاستقرار والأمن فوجدوه مع الحفصيين، وبخاصة أن لهم سابقة وفضلاً في الدعوة وبناء الدولة الموحدية بالمغرب، وواتتهم الفرصة لما تنكر المأمون للدعوة المهدية وأزال رسومها، فجاء أبو زكريا بن أبي محمد عبد الواحد الحفصي إلى تونس وسيطر عليها، واستقل بها، واتبع نظم الموحيدين وكتب للجهات بطلب البيعات⁽³⁾.

وفي الوقت نفسه انفصلت فيه الأندلس وإفريقية وبدأت أحوال الخلفاء في المغرب تضطرب والولايات تستقل⁽⁴⁾، فسيطرت قبائل بني مرين على بوادي المغرب، وانفصل بنو عبد الواد في تلمسان، واستقل الحفصيون في تونس وطرابلس فهذه الانقسامات ساهمت في إضعاف الدولة الموحدية.

9 - فتور مبادئ ابن تومرت في نفوس الموحيدين بل هناك من زعماء الموحيدين من أعلن البراءة منها:

كانت فكرة الموحيدين قائمة على العقائد ومرتكزة على المهدية الهادفة للتجديد

(1) انظر: البيان المغرب (3/269) نقلاً عن دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص 108.

(2) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص 108.

(3) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص 109.

(4) انظر: المصدر السابق، ص 111.

وهي سر حيوية التنظيم الدقيق في أجهزة حزب الموحدين والذي توصلوا من خلاله إلى الدولة، فأنتج هذا الإيمان طاعة عمياء يسرت تنظيم الحزب فالجيش ثم الإدارة، يصف لنا المراكشي نوعية تلك الطاعة فيقول: «ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر وفتنتهم به تشد وتعتظيمهم له يتأكد إلى أن بلغوا في ذلك ولو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء»⁽¹⁾. ولم يكن لهم من هدف في بداية أمرهم سوى تحقيق فكرتهم في واقع الحياة ونشرها في العالمين.

ولما نجح عبد المؤمن في الانتقال بالدعوة من الثورة إلى نظام الدولة رافق ذلك تبدل في مفهومه الأساسي، فنقل الدولة من دولة الفكرة إلى دولة الوراثة، فكان انحراف في المبادئ التي قامت عليها فكرة الموحدين، لأن دولة الفكرة والمبادئ تندم على مؤسساتها من يؤمن بالفكرة والمنهج والمبادئ التي قامت عليها ويلتزمها وتبعد من يحيد عنها.

ولكن دولة الوراثة لا تنظر إلا في تقديم من يثبت أقدامها، ولهذا استقدم عبد المؤمن قبيلة كومية متقوية بهم وولاهم المناصب في الدولة، وأصبحوا متقدمين على كثير من الموحدين، ولم تكن كومية مؤمنة بأفكار الدولة الأساسية بل خاضعة لسيادة الدولة، ولهذا فإن كثيراً ممن قدم منهم كان يسعى لمصلحة نفسه غير مهتم بأفكار لم يؤمن بها، ومع تقادم الزمن ضعفت الفكرة في النفوس وذبل الإيمان في القلوب فدب النزاع على المصالح الخاصة كما يصور ذلك خير تصوير النزاع على العرش واستبداد مراكز القوة المختلفة في الدولة.

ويبدو أن الخلفاء أنفسهم فقدوا الإيمان بالفكرة، فالمنصور يصرح بذلك لخاصته والمأمون يمحو آثارها ويزيل رسومها، ويبدو أن هذا التحول قد بدأ في أيام عبد المؤمن، ومع مرور الأيام حدث انفصام بين الفكرة والدولة، فتجسد ذلك عملياً في خلافة المستنصر، وقام على مرتكز نظري في عهد المأمون ولا ريب أن الفكر إن لم يداوم أصحابه عليه يتحجر ويغدو آفة عليهم⁽²⁾.

كما لا يخفى انحراف الفكر التومرتي الذي فرض على الناس بالسيف والقوة مع كونه يتنافى مع الإسلام الصافي والعقيدة الصحيحة والتصور السليم، فجعلت الناس

(1) المعجب، ص 191.

(2) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص 117.

تنسل من المنظومة الموحدية والعقدية وتحاول أن تبحث لها عن المنهج الصحيح الذي ينسجم مع الفطرة والفهم السليم للإسلام.

هذه بعض الأسباب التي ساهمت في إسقاط دولة الموحدين .

خامساً: خلفاء الموحدين:

- 1 - عبد المؤمن بن علي 524 - 558هـ / 1120 - 1163م
- 2 - أبو يعقوب يوسف 558 - 580هـ / 1136 - 1184م
- 3 - أبو يوسف يعقوب المنصور 580 - 595هـ / 1184 - 1199م
- 4 - أبو محمد عبد الله الناصر 595 - 610هـ / 1199 - 1213م
- 5 - أبو يعقوب يوسف المستنصر 611 - 620هـ / 1213 - 1224م
- 6 - عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن 620 - 621هـ / 1224م
- 7 - أبو عبد الله بن يعقوب المنصور (العادل) 621 - 624هـ / 1224 - 1227م
- 8 - يحيى بن الناصر 624 - 627هـ / 1227 - 1230م
- 9 - المأمون بن المنصور 627 - 630هـ / 1231 - 1232م
- 10 - الرشيد بن المأمون بن المنصور 630 - 640هـ / 1232 - 1242م
- 11 - السعيد علي أبو الحسن 640 - 646هـ / 1242 - 1248م
- 12 - أبو حفص عمر المرتضى 646 - 665هـ / 1248 - 1266م
- 13 - أبو دبوس الوائق بالله 665 - 668هـ / 1266 - 1270م

